الفصل الثالث

مكانتها الاجتماعية والأدبية

بيّنا سابقاً في فصل " صورة المجتمع الجاهلي، أن القبائل العربية كانت موزعة في جزيرة العرب، في المدن والقرى والصحاري الواسعة، وذكرنا أن من كانوا منهم ينزلون المدن والقرى يسمَون "الحضر" وأن من كانوا منهم ينزلون البادية، يسمّون "البدو"، وتكلمنا عن الحضر وأن حياتهم كانت مستقرَّة حيث يعيشون في المدن والقرى، وأنهم كانوا يشتهرون بالتجارة، وخاصّة قبيلة قريش، وتحدثنا كذلك عن البدو الذين كانوا يمثلون القسم الغالب من سكان الجزيرة العربية، وأنهم قوم رُحّل يسكنون الخيام، ولا يقرّون في مكان، لأنهم يطلبون الكلأ فيتبعون مساقطَ الماء ومنابعه، ومنابت العشب وأماكنه،فيرحلون إليها بأغنامهم وآبالهم التي يأكلون لحومها وألبانها ويلبسون أصوافها،كما يتخذون من أصوافها وأوبارها مساكن لهم.

على أن تقسيم العرب إلى بَدْوٍ وحَضَرٍ لا يعني استقلالَ كلِّ قسمٍ بحياته الخاصّة أو أن هناك فيصلاً في نوع الحياة بين البدو والحضر، فحياة الحضر اصطبغت بسمات اجتماعية عديدة تكشف عن حياتهم الرعوية المتجولة، وتجعلهم يشتركون مع البدو في بعض طبائعهم وتقاليدهم، ومنها كثرة التنقل والترحال من مكان إلى آخر، وهي سمة لم يتخلَّ العربُ عنها،بل إنهم عُرِفوا بالتجوال والترحال من مكان إلى مكان،كلما ساءت الأحوال في موطنٍ من مواطنهم، أو لَمَسُوا نفعاً في موطن آخر أو مكان ما يَكْفُلُ لهم حياةً أكثرَ استقراراً ورخاءً.

ثم يسارة المعيشة في السكن والمأكل والملبس، فلم يقتنِ العربيُّ لنفسه سوى أمتعته الشخصية، وأما طعامه فكان يتكون غالباً من اللبن والتمر واللحم، وكان المعروف عنهم القناعة من العيش بالكفاف، وعدم الافتتان أو الافتنان في ألوان المطاعم والملابس، ثم التمسك بعادات الأسرة العربية وما ينطوي تحته من التعصب القبلي وحبِّ الأقارب، ثم ما يترتَّبُ على ذلك من الرغبة في إنجاب الأولاد، وتزويد القبيلة بطبقة كبيرة من المحاربين، ولذلك كان العربيُّ يفرح بالبنين دون البنات، فإذا ولدت الأمُّ ذكراً هَنَّأها أقرباؤُها من أهل القبيلة، وكانوا لا يهنئون إلا بالغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تُنتج"(١).

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٦٥.

وكذلك ما عرف عنهم من الاعتزاز بالقبيلة، فالعربيّ كان يستمد عزَّته من القبيلة التي ينتمي إليها، فلا شكّ أن هذه الصفة كانت مشتركة بين البدو والحضر، ولم تكن هناك مصيبة تحلّ بالرجل أشدّ من أن تتخلّى عنه قبيلتُه،فيصبح خليعاً منها وغريباً عنها، ومنبوذاً فيها لا تحميه قبيلته، ولا تنهض للثأر له إذا قُتِلَ، ولذلك ارتبط العربيُّ بقبيلته ارتباطاً شديداً، ودافع عنها، وتعصب لها، فليس من العَجَب أن نرى قوة القبيلة عندهم تقاس بعدد أفرادها المنتمين إليها، ولذلك كثرت عندهم الأحلاف وما شابه ذلك.

ولا شكّ أن التمسك بالقيم والتقاليد العربية كان أهمَّ ما اتصف به جميع العرب، فكان لديهم واجبات اجتماعية مقدسة كإكرام الضيف والوفاء بالوعد، وحماية الجار والمروءة والبسالة، واحترام الصغير للكبير إلى غير ذلك من الصفات الكريمة التي تعدُّ بحقٍّ مفخرةً للعرب في كلِّ العصور. وقد تَوَّجَ العربيُّ خِصالَه الاجتماعية بما اشتهر عنه من حُبٍّ للحرية،واحتمالٍ للشدائد والصعوبات من أجل الدفاع عن حريته وكرامته، وساعدته الصحراء وما فيها من حياةٍ قاسيةٍ على أن يظلَّ أبيّاً عزيزَ النفس، ولا شك أنها حفظت له تقاليدَه العربية،كما أبعدت المؤثرات الخارجية عن الاختلاط بهذه التقاليد فاحتفظ العربُ بصفاتهم النبيلة القائمة على الاعتزاز بالنفس والقبيلة معاً ثم التعصب للقبيلة والقرابات.

وإذا كانت البيئة العربية قد خَلَقَت في العرب تلك الصفات والعادات النبيلة، فقد وجُدت عندهم أيضاً عادات اجتماعية مُستَهجَنَةٌ أهمُّها إغارة القبائل بعضها على بعض للأخذ بالثأر أو لسلب الماشية أو السيطرة على مصادر الكلأ، فكانت العلاقة بين القبائل تقوم غالباً على الحذر والتربص، وانتهاز الفرص والتنافس و"هذا التنافس يرجع بين القبائل الجاهلية إلى عاملين رئيسين[1] مادي وأدبي، فهو إما طمع في إبلٍ أو مرعى أو بئرٍ، أو فرسٍ أو متاع ما، وإما رغبة في رياسة، أو أخذ بثأر، أو اعتزاز بنفس، أو مفاخرة بقوة، أو غضب لجار أُهينَ، أو عهد نُقِضَ أو مجاراة لسفيه"[2] وكذلك ما عرف من آفات كشرب الخمر ولعب الميسر ووأد البنات خشية الفقر أو العار إلى غير ذلك من العادات القبيحة التي كانت منتشرة عندهم، أو بعبارة أدق كانت منتشرة عند بعضهم.

---

(١) في الأصل رئيسيين وهو خطأ شائع.

(٢) تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب ص٤٦.

وهُذَيْل قبيلةٌ من القبائل العربية في الجاهلية، والحياة الاجتماعية عند العرب جميعاً متقاربةٌ إلى حَدٍّ كبيرٍ، وإذا كان المعروف عن هُذَيْل أنها قبيلةٌ باديةٌ، فقد كان لها أيضاً منازلُ في بعض القرى ـ كما سبق ـ فعاشت في البدو، وعاشت في الحضر، وكثيراً ما نجد قبيلةً واحدَةً تحيا حياتين مختلفتين، وتتوزع بين البادية والحضر أو أَنْ نَجدَ قسماً يتحضر ويسكن المدن على حين نجد قسماً آخرَ منها بادياً في أهل الوبر وفي أطراف القرى والمدن،وقد كان هذا شأن القبيلة العربية في الجاهلية والإسلام معاً[1]، وقد اعتبر الدكتور ناصر الدين الأسد هذيلاً وَجُهَيْنَة ونَهْداً من القبائل التي كانت تحيا حياتين مختلفتين، فهذيل كانت أقسام منها تسكن ضَرْعاء وهي قرية بها قصور ومنبر وحصون، وقسم آخر يسكن في قريتي رُهاط[2] والحديبية، وقسم يسكن في مَرِّ الظهران وهي قرية في واديها عيون كثيرة ونخيل وجُمَّيْز[3].

ولا شكّ أنّ الصفات العربيةَ التي كانت تتصفُ بها الحياةُ الاجتماعية عند العرب في الجاهلية تتمثل في هُذَيْل أصدقَ تمثّلٍ ، فكثيراً ما كانوا يثيرون الحروبَ والأيام ـ كما سيأتي ـ لأتفه الأسباب، أو بسبب الأخذ بالثأر، فهم كسائر العرب يعيبون مَن يَسكتُ عن الانتقام ويرضى بأخذ الدِّيَة. فهذا المُتَنَخِّل الهُذَلي يهجو أُناساً من قومه كانوا مع ابنه حجّاج يومَ قُتِلَ، لأنهم رضوا بأخذ الدية، فهو يدعو عليهم بألاّ يُؤخِّرَ اللهُ آجالَهم، وأن يُعجِّلَ اللهُ في موتهم وفنائهم،جزاءً لهم على ذلك فيقول:

لا يَنْسَأ اللهُ منَّا مَعْشَراً شَهِدوا ... يومَ الأُمَيْلِحِ لاغابُوا ولا جَرَحُوا

كانوا نَعائمَ حَفَّانٍ مُنَفِّرَةً ... مُعْطَ الحُلوقِ إذا ما أُدْرِكوا طَفَحُوا

لا غَيَّبُوا شِلْوَ حَجَّاجٍ ولا شَهِدوا ... جَمَّ القتالِ فلا تَسْأَلْ بما افْتَضَحُوا

عَقَّوا بِسِهْمٍ فَلَمْ يَشْعُرْ به أحَدٌ ... ثم اسْتَفاؤوا وقالوا حبَّذا الوَضَحُ[4]

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد ص٦.

(٢) رُهاط: في القاموس أن رُهاطاً موضع على ثلاث ليال من مكة.

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص٧.

(٤) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ٣ ص١٢٧٨ لا ينسأ: لا يؤخِّر الله آجالهم، طفحوا: غَلَوا وذهبوا في الأرض، معط الحلوق، أي: تَمَعَّطَت من الريش فلا ريشَ عليها، جَمَّ القتال: مُعظَمه، وشِلْوُ كلِّ شيء: بقيَّتُه، عَقَّوْا بسهم، أي: رَمَوْا به في السماء، حَبَّذا الوَضَحُ: حبذا اللبَنُ نَرجِع إِليه، استفاؤوا: رَجعوا.

وكثيراً ما افتخر شعراؤهم بشجاعة قبيلتهم وعزَّتها، فهذا أُميَّة بن أبي عائذٍ يفتخر بهُذَيْلٍ، وعزَّتها ومَنَعَتها وغَلَبَتها في الخصومات يقول:

هُذَيْلٌ حَمَوْا قلبَ الحجازِ وإنّما ... حجازُ هُذَيْلٍ يَفْرَعُ الناسُ من عَلُ

إذا نَظَرَ المُخْتَالُ بالبغْضِ نَحونا ... نَرُدُّ حَسيراً طَرْفَهُ وَهْوَ أَقْبَلُ

ولم يَرنا ذو الضِّغْنِ إلا يَهابُنا ... وإلا يرانا فَوْقَهُ وهْوَ أسْفَلُ (١)

أما حَذَيْفَة بن أنس فيفتخر بشجاعة قومه في لقاء الرجال من الأعداء، ويُشَبِّه الرجلَ من قومه بالأسد المفترس الذي تدرب على اللقاء والقتال فيقول:

وكُنّا أُناساً أَنْطَقَتْنَا سُيوفُنَا ... لنا في لقاء الموت حَدٌّ وكَوْكَبُ

بنو الحرب أُرْضِعْنَا بها مُقْمَطِرَّةً ... فَمَنْ يُلْقَ مِنّا يُلْقَ سَيِّدٌ مُدَرَّبُ

فُرافِرَةٌ أظْفَارُهُ مِثْلُ نابِهِ ... وإن يُشْوِ نابُ الليثِ لا يُشْوِ مِخْلَبُ (٢)

وكان التعصب لقبيلتهم وما يترتَّب عليه من حُبِّ القرابات يظهر فيما بينهم ظهوراً واضحاً، حتى إنه روي عنهم أنهم خَلَعُوا رجلاً منهم، وحدث أن قُتِلَ الرجلُ الذي خلعوه، ثم عادوا فأنكروا خَلْعَه، وطالبوا بدمه، ونَفَوْا أنَّهم خَلَعُوه، وحلفوا على ذلك كاذبين، فأهلكهم الله بحنث القسامة... ذَكَرَ الألوسيُّ - كما سبق - أنَّ هُذَيْلاً خَلَعُوا خليعاً لهم في الجاهلية، وحدث أن طَرَق الخليعُ أهلَ بيتٍ من اليمن بالبَطْحاء فانتبَه له رجلٌ منهم فَحَذَفَه بالسيف فقَتَلَه، فجاءت هُذَيْلٌ فأخذوا اليمانيَّ ورفعوا الأمرَ إلى عُمَرَ بالموسم وقالوا: قَتَلَ صاحبَنا، فقال القاتل: إنَّهم قد خَلَعُوه. فقالَ عُمَرُ: يُقْسِم خمسون من هُذَيْل ما خَلَعُوا، فأقسمَ منهم تسعةٌ وأربعونَ رجلاً، وقَدِمَ رجلٌ منهم من الشام فسألوه أن يُقْسِمَ، فافتدى يمينه منهم بألف درْهَمٍ، فأدْخَلُوا مكانه رجلاً آخرَ فدفعهَ إلى أَخي المقتول، فَقُرِنَتْ يَدُهُ بيده، قالوا: فانْطَلَقَا والخمسونَ الذين أقسموا حتى إذا كانوا بنخلةَ أخذتْهُمُ السماءُ فدخلوا في غارٍ في الجبلِ، فانْهَجَم الغارُ على الخمسينَ الذين أقسموا، فماتوا جميعاً، وأفلت القرينان، وحَدَثَ أن اتبعَهُما

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص٥٣٥.

(٢) المرجع نفسه جـ ٢ ص٥٦١. حَدٌّ: بأس، كوكب كلّ شيء: معظمه، المُقْمَطِرَّة: الكالحة الشنيعة، المُدَرَّب: الضاري، والسَّيِّدُ في كلام هُذَيْل: الأسدُ، فُرافِرَة يُفَرفِرُ كلَّ شيء، يقول: إن كان نابه يُشوي لا ضَيْرَ، فإنّ مِخْلَبَه لا يُشْوِي، أي: هو قاتل.

حَجرٌ فكسر رِجْلَ أخي المقتول ، فعاش حولاً ثم مات، وخلاصة القصة :أن القاتل ادعى أنَّ المقتول لصٌّ وأنَّ قومه خَلَعُوه، فأنكروا هم ذلك وحلفوا كاذبين فأهلكم اللهُ بحنث القسامة، ونجا المظلوم وَحْدَهُ(١).

ويتجلى في هذه القصة تعصبهم للقرابات من قبيلتهم،حتى إنهم عادوا فَكَّذبوا أنفسَهم في أمر صاحبهم الذي خلعوه،وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كاذبون مما يوضح العصبيةَ القبيلة لديهم والحميَّة الجاهلية عندهم.

وكان لقبيلة هُذَيْل نصيبٌ كبير في دولة الشعر والأدب، فقد كثر شعراؤها كثرةً هائلةً وكَثُرَ شعرهم إلى حَدٍّ يَضَعُهم في المركز الأول بين القبائل العربية، فإن ما وصل - إلينا من شعر هُذَيْل يمثل أكبرَ ما عُرِفَ لأيّة قبيلة من العرب، وقد سُئِلَ حسانُ بن ثابت رضي الله عنه: مَن أشعرُ الناس؟ فقال: أرجلاً أم حَيّاً؟ قيل له :بل حَيّاً، قال: أشعر الناس حيّاً هُذَيْل. قال ابن سلاّم الجُمَحيُّ وأشعر هُذَيْل أبو ذؤَيْب غير مُدافَع(٢) وقال الأصمعي: "قال أبو عمرو بن العلاء،أفصحُ الشعراء لساناً وأعذبُهم أهلُ السَّرَوات، وهن ثلاث وهي الجبالُ المطلَّة على تهامة مما يلي اليمن فأوَّلُها هُذَيْل، وهي تلي السهل من تهامة،ثم بَجيلة في السَّراة الوسطى، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها، ثم سَراة الأزد أزْد شَنُوءَة، وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نصر بن الأَزْد"(٣).

وهُذَيْل إحدى القبائل العربية التي أُخِذَتْ عنها اللغةُ، وكانت مرجع الاستشهاد على صحة المفردات،ومعرفة الغريب من الألفاظ، وقد ذكر السيوطي أن الفارابي قال في أول كتابه المسمى، "بالألفاظ والحروف" : "كانت قريشٌ أجودَ العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عما في النفس. والذين عنهم نُقِلَت اللغة العربية وبهِمُ اقْتُدِيَ، وعنهم أُخِذَ اللسانُ العربيّ من بين قبائل العرب هم: قيس ، وتميم، وأسد، فإنَّ هؤلاء هم الذين

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي جـ٣ ص٢٨. وانظر «فتح الباري شرح صحيح البخاري» الحديث (٦٨٩٩).

(٢) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٨٨، «طبقات فحول الشعراء» قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ١/ ١٣١.

(٣) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص٨٨.

عنهم أكثرُ ما أُخِذَ ومعظمه،وعليهم اتُّكِلَ في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هُذَيْل، وبعض كِنانة، وبعض الطائيين،ولم يُؤْخَذْ عن غيرهم من سائر قبائلهم"(١).

بل أنَّ هذه القبيلة كان لها في الجاهلية سوقاً خاصّة، وهي سوق ذي المجاز وكانت على بعد فرسخ من عرفة(٢) فكانوا يتناشدون بها الأشعارَ هم ومَنْ يأتيهم من قبائل العرب الأخرى.

ولا عجب أن نرى لهُذَيْل هذه المكانة في الشعر والأدب، فالعرب أُمَّةٌ صناعتُها الكلام، ومفخرتُها البيانُ، وكان أهل الحجاز من بينهم خاصَّة أهل لَسَن وفصاحة، يزدهيهم القول،وتأخذ بألبابهم البلاغة، وقد أثر لهم من جيد الأشعار وروائع الأساليب، ما يُعَدُّ على وجه الزمان من مآثرهم الخالدة، ومناقبهم الباقية،فإذا علمنا أن هُذَيلاً من القبائل الحجازية، فلا عجبَ أن تكون لها هذه الكميةُ من الشعر والشعراء، ولا عجبَ كذلك أن تكون لها تلك المكانةُ بين القبائل العربية الأخرى.

وكثيراً ما تحدث العلماء والنقاد عن شعراء هُذَيْل وكثرتهم، قال الأصمعي: "إذا فاتك الهُذَليُّ أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه"(٣) وقال يونس بن حبيب: "ليس في هُذَيْل إلا شاعرٌ أو رامٍ أو شديدُ العَدْوِ"(٤) فهذا يدل دلالة واضحة على كثرة شعرهم وشعرائهم، وكثرة شجعانهم وعَدَّائيهم كثرةً لفتت أنظارَ العلماء والنقاد، والحقّ أنَّ مَن يسرح نظرهَ في أشعارهم يتَّضِحُ له أن شعرَهم كان مرآةً صادقةً لوجودهم، ويتضحُ له أنهم عرفوا الحياة وفهموها لما احتفل به شعرهم من تصوير لنوازع الحياة، وما فيه من رسم لألوان حياتهم وطُرُقِ معيشتهم، مما جعله صورةً واضحةً، ومرآةً صادقة، لبيئتهم ولحياتهم الاجتماعية في شَتَّى الميادين.

ولعلَّ مما يفصح عما كان لهُذَيْل من مكانة أدبية،ما عرف عنهم من الشهرة بين العرب باللَّسَن والفصاحة، حتَّى إنَّ العربَ كانوا يرسلون أبناءَهم إليها،لينهلوا من معينها الثَّجَّاج، وليتزودوا من الشعر والأدب وفصيح العربية، وقد رُوي أن الشافعيَّ رضي الله عنه أقام عند هُذَيْل مدةً طويلة، فحفظ أشعارَها، وتذوَّقَ أساليبَها، يقول

---

(١) المزهر للسيوطي جـ ١ ص٢١١.
(٢) بلوغ الأرب للألوسي جـ ١ ص٢٦٦.
(٣) الأغاني ٣١/٢٣٣.
(٤) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٧٤.

بروكلمان: "وقَدِمَ الشافعيُّ إلى مكةَ وهو طفلٌ،قيل : إنه كان حينئذ في السنة الثانية من عمره،وتلقى بها تعليمَه، وبدأ فيها سماعَ الحديث والأخبار، فلما بلغت سنُّهُ نحو سبع عشرة سنة رحل إلى البادية، وبقي بها بين أكناف بني هُذَيْل، حتى بلَغ نحو عشرين سنة، فأخذ عنهم فصيحَ العربية، وروى الشعرَ والأدب"(١) والمعروف عن الشافعيِّ أنه كان عالماً لغوياً أديباً، وأنه كان بحكم عروبته وثقافته اللغوية والأدبية وبحكم نشأته عند هُذَيْل ودراسته لشعرها، صاحب بيان فخم، وتعبير جَزْل، وأسلوب رفيع. وعرف عنه كذلك أنه كان إماماً في الحفظ والرواية، وأنّ رجال الأدب كانوا يأتونه فيقرؤون عليه الشعرَ فيفَسِّره، وذكر الأصمعي أنه قرأ شعرَ هُذَيْل عليه، فقد حدث عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي قال: قلت لعمي: على مَن قرأت شعرَ هُذَيْل؟ قال: على رجل من آلِ المطلب يقال له ابن إدريس(٢).

وقد أُعجبَ الشافعيُّ بأشعار هُذَيْل لنشأته في قبائلهم،ورضاه عن طباعهم.

ولأن هُذَيْلاً ـ كما يقول الشافعيّ نفسُه ـ كانت أفصحَ العرب، يقول الشافعيُّ في حديثه عن نفسه: "ثم إني خرجتُ عن مكَّةَ، فلزمتُ هُذَيْلاً في البادية، أتعلَّمُ كلامَها، وآخذُ طبعَها، وكانت أفصحَ العرب، قال: فبقيتُ فيهم سبعَ عشرةَ سنةً، أرحلُ برحيلهم،وأَنزل بنزولهم، فلما رجعتُ إلى مكَّةَ جعلتُ أنشدُ الأشعارَ، وأذكر الآدابَ والأخبارَ وأيامَ العرب"(٣).

وقد كان لشعرهم أثرٌ كبير في نفوس المتأدبين في محبته وحفظه وروايته والاستماع إليه، لما فيه من الجمال الفنيّ والتأثير في النفوس، وكذلك لما فيه من البراءة والروعة وصدق العاطفة، فروي أنه لما ماتَ جعفر بن المنصور العباس، وهو ابنُه الأكبر مشى المنصور في جنازته إلى مَقابرِ قريش في بغداد،ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه، وانصرف بعد ذلك إلى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال: يا ربيع انظر مَن في أهلي ينشدني:

"أَمِنَ المنونِ وريبِها تَتَوَجَّعُ"

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان جـ٣ ص٢٩٢.

(٢) المزهر للسيوطي جـ١ ص١٦٠.

(٣) معجم الأدباء جـ١٧ ص٢٨٤.

حتى أتسلى بها عن مصيبتي. قال الربيع: فخرجت إلى بني هاشم وهم بأجمعهم حضور،فسألتُهم عنها فلم يكن فيهم أحدٌ يحفظُها، فرجعتُ فأخبرتُه، فقال: "والله لمصيبتي بأهلِ بيتي ألا يكون فيهم أحدٌ يحفظُ هذه لقلّة رغبتهم في الأدب أعظمُ وأشدُّ عليَّ من مُصيبَتي بابني" ثم قال: انْظُرْ هل في القّواد والعَوامِّ من الجُنْد منْ يعرفها، فإنّي أحبُّ أن أسمعَها من إنسان ينشدُها. قال الربيع: فخرجت فاعترضتُ الناسَ فلم أجدْ أحداً ينشدُها إلا شيخاً كبيراً مؤدباً قد انصرف من موضع تأديبه، فسألته: هل تحفظ شيئاً من الشعر؟ فقال: نعم، شعرَ أبي ذُؤَيْبٍ فقلت: أنشدني فابتدأ هذه القصيدة العينية. فقلت له: أنت بُغْيتي، ثم أوصلْتُه إلى المنصورِ فاستنشده إيّاها، فلما قال: والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَن يَجْزَعُ.

قال: صدقَ والله، فأنشدني هذا البيت مئة مرَّةٍ ليتردَّد هذا المصراعُ عليَّ فأنشده،ثم مَرَّ فيها، فلما انتهى إلى قوله:

والدهرُ لا يَبْقَى على حَدَثَانِه جَوْنُ السَّراةِ له جَدائدُ أَرْبَعُ

قال: سلاَ أبو ذؤيب عن هذا القول: ثُمَّ أمرَ الشيخَ بالانصراف. قال الربيع: فاتبعتُه فقلتُ له:أأَمرَ لكَ أميرُ المؤمنين بشي؟ فأراني صُرَّةً في يده فيها مئة درهم(١).

وكانت هُذَيْل تتمتع بمكانٍ مرموقٍ بين العرب في الجاهلية، وكانت لا تتوانَى مع غيرها من القبائل في الدفاعِ عن حِمَى العروبة ومقدساتها، ولا تتردَّدُ في تقديم الخدمات لأجلِ المصالح العربية. فعندما استولى أبرهةُ الأشرمُ على اليمن، وقرَّرَ أن يذهبَ إلى مكةَ بجيشه ليهدم الكعبةَ، سار إلى مكةَ وخرج معه الفيلُ، ثم سمعت العربُ بذلك فأعظموا هذا الأمرَ وفَظعوا منه،ورأوا أن الجهادَ واجبٌ عليهم حين سمعوا أنه يريدُ هَدْمَ الكعبة، ويقال: إن أَبْرَهَةَ عندما نزلَ المُغَمَّسَ(٢) بعثَ رجلاً من الحبشة يسمَى الأَسْوَدَ بن مقصود على خيلٍ له حتَّى وصل إلى مكَّة، فساقَ إليه أموال أهلِ تهامة من قريش وغيرهم، وأصابَ فيها مئتى بعيرٍ لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبيرُ قريشٍ وسيِّدُها، وعند ذلك هَمَّتْ قريش وكِنانة وهُذَيْل وغيرُهم بقتاله ثم عرفوا بعدَ ذلك أنه لا طاقةَ لهم به فتركوا ذلك(٣).

---

(١) الأغاني جـ٦ ص٢٥٧.

(٢) المغمس: موضع بطريق الطائف.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص٢٥٩.

ثم بعثَ أَبرهةُ حُنَاطَةَ الحميريَّ إلى مكَّةَ وأمره أن يسألَ عن سيِّد مكَّةَ وشريفها وأن يقولَ له: إنّ الملكَ يقول لك: إنِّي لم آتِ لحربكُمْ، وإنما جئتُ لهَدْمِ هذا البيت، فإنْ لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم،وقال له: فإنْ هو لم يُردْ حَرْبي فَأْتني به، فلما دخلَ حُناطَةُ مكَّةَ سأل عن سيْدِ قريشٍ وشريفها، فقيل له: عبدُ المطلب بن هاشم، فجاءَه وكلَّمَه بما أمره به أبرهة. فقال له عبد المطلب: والله لا نريد حربَه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيتُ الله الحرام، وبيتُ خليله إبراهيمَ عليه السلام، فإن يَمْنَعْهُ منه فهو بيتُه وحَرَمُهُ، وإن يُخَلِّ بينَه وبينه، فوالله ما عندنا دَفْع عنه: فقال له حُناطَةُ: فانطلقْ معي إليه فإنّه قد أمرني بذلك، فانطلقَ معه عبدُ المطلب وصحبَهُ بعضُ بَنيْه حتى وصلَ العسكر. وكان عبد المطلب من أوسمِ الناسِ وأجملِهم وأعظمِهم فلما رآه أَبرهةُ أجلَّه وأعظمَه وأكرَمه عن أن يُجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشةُ يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهةُ عن سرير ملكه، وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه بجانبه ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال التُّرجُمان له ذلك، فقال عبد المطلب: حاجتي أن يَرُدَّ عليَّ الملك مِئَتَيْ بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك، قال أبرهةُ لترجمانه: قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتُكَ، ثم زَهدْتُ فيك حين كلَّمتني، أتُكَلِّمني في مئتي بعيرٍ أصبتهُا لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلِّمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رَبُّ الإبلِ، وإنَّ للبيت رَبّاً سيمنعه، قال أبرهة: ما كان ليمتنعَ مني، فرد عبدُ المطلب: أنتَ وذاك(١).

ويقال إنه قد ذهب مع عبد المطلب إلى أَبرهةَ حين بعث إليه حُناطَةُ، يَعْمَرُ بنُ نُفَاثة بن عديّ بن الدّئل بن بكر بن مناة بن كنانة وكان سيّدَ بني بكرٍ، وخويلد بن واثلةَ الهُذَلي وكان سيّدَ هُذَيْلٍ، ويقال: إنهم عرضوا على أبرهة ثلثَ أموالِ تهامة على أن يرجعَ عنهم ولا يهدمَ البيتَ، فأبى أبرهةُ ذلك، وردَّ على عبد المطلب الإبلَ التي أصابَها له، فلما انصرفوا عنه ذهبَ عبدُ المطلب إلى قريشٍ فأخبرَهم الخبرَ، وأمرَهم بالخروجِ من مكَّةَ، والتحرّزِ في شَعَفِ الجبال والشِّعاب خوفاً عليهم من الجيشِ، ثم قامَ عبدُ المطلب فأخذَ بحَلْقَةِ بابِ الكعبةِ، وقام معه نفرٌ من قريشٍ يدعون الله ويستنصرونَهُ على أبرهةَ وجنوده، وقالَ عبدُ المطلب وهو آخذٌ بحلْقة باب الكعبة:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص٢٦١.

لا هُمَّ إنَّ العبدَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فامْنَعْ حِلالَكْ

وانْصُرْ على آلِ الصَّلِيـ ... ـبِ وعابديه اليومَ آلَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صليبُهُمْ ... ومِحَالُهُمْ غَدْواً مِحَالَكْ (١)

وفي دائرة المعارف الإسلامية الإنجليزية ـ مادة هُذَيْل ـ أنه عندما حاول أبرهةُ ملك الحبشة أن يهدمَ الكعبةَ في عام الفيل، قامت هُذَيْل وجيرانُها من قبائل العرب من قريش وكنانة وغيرهم بمقاومته، ولكنها فشلت. ثم إن عبدَ المطلب وخويلد بن واثلةَ وهو من رؤساء هُذَيْل، ويَعْمَرَ بن نُفاثه رئيس بكر بن عبد مناة، قدموا عرضاً إلى أبرهة للتنازل عن ثلث أموال تهامة على أن يترك الكعبةَ ويغادر البلاد، ولكن أبرهة رفض ذلك(٢).

وانطلق عبدُ المطلب هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرّزوا فيها ينتظرون ما يفعلُ أبرهةُ بمكة إذا دخلها. ولما أصبح أبرهةُ استعدَّ لدخول مكَّةَ وهيَّأ فيلَه، وعَبّأَ جيشَه وجنودَه، وكان أبرهةُ مصمماً على هَدْم البيت ثم الانصراف بعدَ ذلك إلى اليمن، ويقال: إنهم لما وَجَّهُوا الفيلَ إلى مكَّة أقبل نُفَيْل بن حَبيب حتى قام إلى جنب الفيلِ ثم أخذ بأُذُنه وقال: ابْرُكْ محمود(٣)، أو ارجع راشداً من حيث جئت، فإنّك في بَلَدِ الله الحرام، ثم أرسلَ أُذُنَه فبركَ الفيلُ، ومضى نُفَيْل بن حبيب يشتدّ حتى صعد في الجبال، ثم ضربوا الفيلَ ليقومَ فأبى فضربوه في رأسه ليقومَ فأبى، وحاولوا معه ذلك بشتى الوسائل فأبى أيضاً، ويقال: إنهم وجَّهُوه ناحية اليمن فقام يُهَرْوِلُ،ثم وجَّهوه نحو الشام ففعل مثلَ ذلك، ثم وجهوه إلى المشرق ففعل مثلَ ذلك أيضاً،ووجَّهوه إلى مكة فبركَ(٤).

ويقول ابن إسحاق: "فأرسل اللهُ تعالى عليهم طيراً من البحر أمثالَ الخَطاطيف والبَلَسان، مع كل طائرٍ منها ثلاثةُ أحجارٍ يحملها: حجرٌ في منْقاره،وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّصِ والعَدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلّهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص٢٦٢.

(٢) The Encyclopaedia of Islam 2. p. 329.

(٣) محمود هو اسم الفيل كما ذكر ابن هشام.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص٢٦٣.

أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريقَ الذي منه جاؤوا.... فخرجوا يتساقطون بكلّ طريقٍ، ويهلكون بكل مَهْلك على كل مَنْهَل،وأُصيب أبرهُة في جسده،وخرجوا به معهم يسقط أُنْمُلَةً أُنْمُلةً، كلما سقطت أُنْمُلَةٌ، أَتْبعَتها منه مدَّة تَمُثُّ قَيْحاً ودماً،حتى قدموا به إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر،فما مات حتى انصدع صدرُه عن قلبه"(١) وقد صور القرآن الكريم هذه القصة أبرع تصوير في سورة الفيل.

وكانت هُذَيْل لا تتردّد في تقديم الخدمات من أجلِ المصالح العربية، وقد ذكر السُّكَّريُّ أن ملكَ الحبشة لما خرَج بالفيلِ هو وقومه يريدون الكعبةَ،كانوا لا يَمرّونَ على حَيٍّ من العرب إلا أخذوا منهم ناساً، حتى إذا بلغوا المغُمَّسَ من جانب الحَرَم حبس الله الفيلَ، وأرسلَ عليهم طيراً أبابيلَ، وحدثَ أنْ فَرَّ من ملوك اليمن ناسٌ كثيرون من كِنْدَةَ وحِمْيَرَ والحبشِ في جبال هُذيل فَقُتلوا وأُسروا، ورجع ملكُ الحبشة إلى اليمنِ من المُغَمَّسِ في بني كِنانة، وكان لا يمرُّ على قبيلةٍ إلا أخذ منها رهائنَ يَرْتَهِنُهُمْ حتى وصلَ إلى اليمن، فجاء بنو كِنانة إلى هُذَيْل، وطلبوا منهم أن يَخْرُجُوا بمن كان عندَهم من أسراءِ كِنْدَةَ وحِمْيَر والحَبشِ ، فأجابتْ هُذَيْل طلبَهم ، وخرج بالأسرى مَعْقِلُ بنُ خُوَيْلدٍ أخو بني سَهْم بن مُعاوية، وغافلُ بن صخْر أخو بني قُرَيْم ابن صاهلةَ بن كاهلِ بن الحارث ـ من هُذَيْل ـ حتى قَدموا على ملك الحبشة، فافْتدَوْا بهم أُسراءَ بني كِنانة ممن كانوا سَبَوْا من أهلِ نَجْدٍ حين أقبلوا يريدون الحرمَ، فقال في ذلك مَعقل بنُ خُوَيْلد الهُذَليُّ حين رجع بسَبْي العرب أبياتاً، وذكر الأصمعيُّ أن الذي قالها هو خُوَيْلدُ بن واثلة بن مِطْحَل وهو أبو معقلٍ هذا، وهو الوافد إلى ملك الحبشة، قال:

إمَّا صَرَمْتِ جديدَ الحبـ ... ـلِ منَّا وغَيْرَكِ الآشِبُ
وقَوْلُ العُداةِ وأيُّ امْرِئٍ ... من الناس ليسَ له عائبُ
فيا رُبَّ حَيْرَى جُماديَّةٍ ... تَنَزَّلَ فيها ندىً ساكِبُ
لهم عَدْوَةٌ كانقصاف الأتـ ... ـيِّ مَدَّ به الكَدرُ اللاحِبُ
وسودٌ جعادٌ غلاظُ الرِّقاب ... مِثْلَهُمُ يَرْهَبُ الراهِبُ

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص٢٦٤.

أَتيتُ بأبنائكُم منْهُمُ ... وليسَ مَعي منكُمُ صاحبُ
فذلكُمُ كانَ سَعْيي لكُم ... وكُلُّ أُناسٍ لهم كاسبُ[1]

ولقد شاعَ عن هُذَيْل في الجاهلية بعضَ الآفات والنقائض الاجتماعية، فمن ذلك ما روي من أنهم كانوا يئدون البنات، وأنهم إحدى خمس قبائل شاع فيها الوأد. يقول المبرّدُ: " وكانت العرب في الجاهلية تَئدُ البنات، ولم يكن هذا في جميعها، إنما كان في تميم بن مُرٍّ، ثم استفاض في جيرانهم، فهذا قول واحد. وقال قوم آخرون: بل كان في تميم وقيس وأسد وهُذَيْل وبكر بن وائل"[2] واستشهد بقول رسول الله ﷺ " اللهمّ اشْدُدْ وطأتَكَ على مضرَ، واجعلَها عليهم سنين كسني يوسف"[3] وذكر أن بعض الرواة يقولون في "اشدُدْ وطأتَك" أن المعنى قريب يرجع إلى الثقل، وأنهم أجدبوا سبعَ سنين حتى أكلوا الوبرَ بالدم فكانوا يسمونه العَلْهَز، وأنَّ الله عزَّ وجلّ أبان تحريم الدم، ودلَّ على ما من أجله قتلوا البنات فقال: ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾ [الإسراء :٣] وأنّ هذا الخبرَ يدُلّ على أنّ ذلك للحاجة[4]. وكذلك رُوي أن العرب في الجاهلية كانوا يفعلون ذلك لمزيد الغيرة عندهم،ومخافةَ لحوق العارِ بهم، فكان الوأد عندهم أنفةً وخوفاً من العار[5].

ويبدو لي أنّ الوأد إنْ كان قد حدثَ عند قبيلة هُذَيْل فهو نادرٌ أو قليلٌ ، حدث في الأزمات الاقتصادية، أو لعزَّةٍ وحميَّةٍ جاهليةٍ ومخافةَ العارِ الذي قد يلحقُ بالبنات، بل إني أكادُ أزعمُ أنَّ ذلك لم يقع عندَهم، وذلك لأنني لم أقع في أشعار الهذليين على ما يدل على ذلك، ولم أعثرْ على شعر يدلّ على شيوع الوأد عندهم، أو على مجرد حدوثه،ومعروف أن الشعرَ الجاهليَّ صورة صادقة للحياة الاجتماعية عند العرب في الجاهلية،وأن فيه تظهرُ عاداتهُم وأخلاقُهم، ولا شكَّ أن الشعرَ مرآةٌ للحياة

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ١ ص٣٨٩. الآشب: العائب، حيرى: ليلة طويلة، جُماديَّة: باردة، عَدْوَة، حَمْلَة كجرْيَة السيل وصوته، لاحب: مُطَّرِدٌ ذاهب، وقَصْفَة: دفعة، الأتي: السيلُ، مَدَّ به الكدرُ: يريد أنه يمر مراً سريعاً مستقيماً، سُود: يعني الحبش.

(٢) الكامل للمبرد جـ ٢ ص٨٢.

(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص٨٢.

(٤) المرجع نفسه جـ ٢ ص٨٢.

(٥) بلوغ الأرب للألوسي جـ ٣ ص٤٢.

الاجتماعية، وأنه صورة صادقة ودقيقة لأمور الحياة في شتى الميادين. ولذلك أعتقد أنَّ وأدَ البناتِ إنْ صَحَّ وحدثَ عندهم فلا بُدَّ أنَّهُ كان في فئة قليلةٍ منهم، أو أنه كان في حوادثَ نادرةٍ لم يَحْفِلْ بها شِعْرُهم،ولم يسجلْها شعراؤهم.

ومن الآفات والنقائص التي رُميتْ بها هذه القبيلة ما روي عنها من أكل لحومِ الناس. يقول الجاحظ: "وقد هُجيتْ هُذَيْل وأسد وبَلْعَنْبَرُ وباهلة بأكل لحوم الناس، قال حسان بن ثابت يذكر هُذَيْلاً:

إن سَرَّكَ الغَدْرُ صِرفاً لا مزاجَ له ... فأْتِ الرجيعَ وسَلْ عن دار لحيانِ

قومٌ تواصَوْا بأكل الجارِ بينَهُمُ ... فالكلب والشاةُ والإنسانُ سيَّان

وقال الشاعرُ في مثل ذلك في هُذَيل:

وأَنتُمْ أَكلتُم شَحْمَةَ ابنِ مُخَذَّمٍ ... زباب فلا يَأْمَنكُمُ أَحَدٌ بَعْدُ

تداعَوْ له من بينِ خمسٍ وأربعٍ ... وقد نَصَلَ الأَظْفارُ وانْسَبأَ الجِلْدُ

ورَفَعْتُمْ جُرْدَانَهُ لرئيسِكُمْ ... معاوية الفلحَاءِ يالكَ ما شُكْدُ (١)

والحقّ أَنَّني لم أقعْ في أشعارِ الهُذَليين على شعرٍ يدلُّ على ذلك، والعجيب أن الأبيات الثلاثة الأخيرة التي رواها الجاحظُ على أنها قيلت في هُذَيْلٍ، لم تُقَلْ في هُذَيْل وإنما قيلت في بني نُفَاثةَ بن عديٍّ بن الدِّيل بن بكر، ففي كتاب شرح أشعارِ الهذليين روايةٌ عن الأصمعي وأبي عمرو أن بني نُفاثَةَ بنِ عديٍّ بن الدِّيل بن بكر - وهم ليسوا من هُذَيْل - عمدوا إلى جارٍ لهم في الجاهلية، يقال له حُبَيْش بنُ مُخَذَّمٍ وذلك في أزمة أصابت الناس فشووه ثم تركوه أياماً، حتى إذا قَبَّ أكلوه، فقال ضُبَيْسُ بن رافعٍ العَضَلِيُّ يعيرهم بما فَعَلُوا:

أنتُمْ أَكَلْتُمْ سِحْفَةَ ابنِ مُخَذَّمٍ ... حُبَيْشٍ فلم يَأْمَنْكُمُ أَحَدٌ بَعْدُ

تَداعَوا لهُ من بعدِ سبعٍ وأربعٍ ... وقد نصلَ الأظفارُ وانْسَبَأَ الجِلْدُ

وقد خَبَؤُوا جُرْدانَهُ لرئيسِهِمْ ... معاوِيَةَ الفلحاءِ إنك ما شُكْدُ

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ١ ص٢٦٨.

نُفـاثَة أَعَني لا أحـاولُ غـيـرَهُمْ وباسلُ قـولي لا ينالُ بَني عَـبْـدِ
وإنْ يجِـدُوا يومـاً على بَظْر أُمِّـهِمْ طعاماً فلا رَعْوَى لدَيْهِمْ ولا قَصْدُ (١)

ويروى أن أبا بثينةَ الصاهلي ـ من هُذَيْل – ذكر تلك الواقعةَ في أبيات هجا بها ساريةَ بن زُنَيْمٍ وهو من بني عَبْدِ بن عَدي بن الدِّيل بن بكر، وعيرَّهم أبو بثينة بالرجل الذي ذبحوه فأكلوه، فقال:

أسـاريَـةَ الذي يُهْـدي إلينا قـصـائدَهُ ولم يَعْلَمْ حَـفـيلي
ولم يَعْلَمْ بمَـشْـرانا زُنيْـمـاً عـجَـانَ الثَّـوْرِ ساريةُ بنُ غُـولِ
فـهل تَأْوِي إلى المَنْجَـاةِ إنِّي أخـافُ عليكَ مُـعْـتَلَجَ السـيـولِ
مـتى مـا تَبْلُهُمْ يومـاً تَجِـدْهُمْ على مـا نابَ شَـرَّ بني الدَّئيلِ
وأوْفَى وَسْطَ قَـرْنِ كُـراشَ داعٍ فـجـاؤوا مِـثْلَ أفـواهِ الحَـسـيلِ
إذا مَـسَـحـوا سِـبَـالَهُمُ بدُهْنٍ أَلْهَـفَكَ عَـبْـدُ للرَّجُلِ القَـتـيلِ (٢)

ثم أن ساريةَ بنَ زُنَيْمٍ لم يسكتْ أمام أبي بثينة الصاهليّ الذي هجاه، بل رَدَّ عليه بهجاءٍ لاذاعٍ، وكالَ له الصاعَ صاعين، إلا أنّه لم يتعرضْ لما عيَّره به أبو بثينة من قصة الرجلِ الذي ذبحوه فأكلوه، ولكنه طعنَه في شرفه وشرفِ قومه، ووصفهم بالجُبْنِ ونحو ذلك فقال:

بَلى إنيٍّ بَلَوْتُ لديْكَ شِـعـراً قَلـيـلاً عند تِنْبَـالٍ ذَلـيلِ
قَـعُـودٌ في بيـوتٍ واضِـعـاتٍ يشُـوبُونَ النواطِلَ بالثَّـمِـيلِ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٧٢٩ السَّحْفَةُ: ما سُحِف من لحم الظهر، وسَحَف: أخَذَ، تداعوا: اجتمعوا. سبع وأربع بحذف المضاف إليه، أي: سبع ليال وأربع ليال، وانسبأ: احترق، نَصَلت: سقطت، معاوية: هو معاوية بن عُرْوَة بن صَخْر بن يَعْمَرَ وهو أبو نَوْفَل بن معاوية، وهو بيتهم. الفلحاءُ: المنشق الشفة الغليظها، شُكْد: عطية، الجُرْدان: وعاء غرمول الحمار فاستعاره هنا يريد ذَكَرهُ، باسلُ قولي: شديدُه وكريهُه، وعَبْدٌ: من كِنانة، الرَّعْوى: البُقيا، وارعوى: رَجَع.

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص٧٣١ حَفيلي: كثرةُ شعْري، المنجاة: ما ارتفع من الأرض، الدئيل: أراد الديل فهمزه، أوْفَى إلى المكان: صار إليه على شَرَفٍ وغيرِ شَرَفٍ، الحسيلُ: البقر، كراش: جبل.

كـأنَّكُم تُيُـوسُ الشِّـرْكِ غَـذَّتْ على أذقـانِهـا بشَـفـا قَـفـيـلِ
فـإنا يومَ أغـرارٍ فَـعَلْنا بكُمْ فَـقْـمـاءَ واضِـحـةَ المُشُـولِ (١)

ومهما يكن من شيء فإنه لا يوجد في أشعارِ هُذَيْل ما يدلّ على أنَّهم كانوا يأكلون لحوم الناس،وكلّ ما رأيتهُ في هذا الموضوع هو رواية الجاحظ السابقة في "الحيوان" والمرجَّحُ عندي أن ما هُجوا به من أكلِ لحوم الناس، كأبيات حسان السابقة، كان على سبيل المبالغة في الهجاء، وهذا ونحوه يكثر على ألْسِنة الشعراء لا سيما في الهجاء.

ومن الآفات والنقائص ما ورد عنهم من حوادث تدلّ على فساد مجتمعهم في الجاهلية، مما دفع بعض الباحثين(٢) إلى القول بفساد مجتمعهم، وخاصّة على ما كان هناك من علاقات مريبة بين الرجل والمرأة فيما يمس الشرفَ والعفة، فمن ذلك ما روي من أن خالد بن زهير بن الحارث وهو ابن أخت أبي ذُؤَيْب ـ عشق امرأةً وابنتَها في الجاهلية وخالَلَهُما معاً، وما قيل من أنه كان يتردَّد عليهما كثيراً، فبلغ ذلك مَعقِلَ بنَ خُوَيْلِدٍ وكان يومئذ سيِّدَ قومه، فقال في شأنِ خالد بن زهير:

أَتاني ولَمْ أَشْـعُـرْ بِهِ أَنَّ خـالـداً يُعَطِّفُ أَبْكاراً على أُمَّـهـاتِهـا
يُعطِّفُ طولاها سَناماً وحـارِكـاً ومِثْلُك أَغْنَتْ طِلْبَها عن بناتِهَا
فلم تَرَ بِسْطاً مِـثْلَهـا وخَلِيَّـةً بهـاءً إذا دَفَّـعْتَ في ثَفنَاتِهَـا (٣)

فما كان من خالد بن زهير إلا أن أجابه وردَّ عليه يناقضه بأبيات يقول فيها:

إذا مـا رأيْتَ نِسـوةً عندَ سَـوْءةٍ فـإنَّ نسـاءَ مَـعْـقِلٍ أَخَـواتُهَـا
فكنْ مَعْقِلاً في قومِكَ ابنَ خُوَيْلِدٍ ومَسِّكْ بأسبابٍ أضاعَ رُعَاتُهَا

---

(١) المرجع نفسه جـ ٢ ص٧٣٣ امرأة واضعة، أي: فاجرة، يشوبون: يمزجون، الناطل: مكيال للخمر، الثميل: بقية الماء الذي بقي على الحَرِّ، الشِّرْكُ: بلد، غَذَّت: دفعت البولَ دفعةً بعد دفعة، شفا: حَرْفٍ، وجعلهم بشفا لأنهم كانوا هناك، أغرارٌ: جَبَل، فَقْماء: داهيةٌ، مُثُول: مَثَّلُوا به.

(٢) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص٩٩.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ١ ص٢٢٠ طولاها: طولها سناماً، البسط: الناقة التي تخلى وولدها، لا تعطف على غيره، خلية: التي تخلى للحلب، بهاء: حسنة الخلق.

ولا تَبْـدُرَنَّ الناسَ مِنِّي بَحَـزْرَةٍ طويلةِ حـدِّ الشـوكِ مُـرٍّ جَناتُهـا
ولا تبـعثِ الأفـعى تُداوِرُ رأسَـهـا ودعْـهـا إذا ما غَـيَّبَتْـها سَـفـاتُهـا (١)

فلما علم أبو ذُؤَيْبٍ بما كان بينهما، وبما تراجعا فيه،خشي أن يتفاقم الأمرُ بينهما، فتدخل ليصلحَ بين مَعْقِل بن خُويلدٍ وخالد بن زهير، وقال قصيدة منها:

لا تَذْكُـرَنَّ أُخْـتَنَا إن أُخْـتَنَا يَعِـزُّ علينَا هُوْنُهـا وشَكاتُهَـا
فَـأَبْلِغْ لَديْكَ مَـعْـقِلَ بنَ خُـوَيْلِدٍ مَـلائكَ يُهْـديهـا إليكَ هُداتُـهـا
وقـد علمَ الأقـوامُ أَنَّكَ سَـيِّـدٌ وأَنَّكَ مِن دارٍ شـديدٍ حَـصـاتُـهَـا
ولا تُتْـبِعِ الأَفْـعى يَدَيْكَ تَنُوشُـهـا ودَعْـهـا إذا ما غَـيَّبَتْـها سَـفـاتُها
وأَطْفِئْ ولا تُوقِدْ ولا تَكَ مِـحْـضـأً لنارِ العُـداةِ أن تطيـرَ شَكاتُهـا
فـإنَّكَ إنْ تَفْـعلْ فـإنَّكَ سـالِمٌ وإن تَفْعَلِ الأخْرى تَصِبْكَ أَذاتُـهـا (٢)

وكذلك ما روي من أبا ذؤَيْب كان يبعث ابن عمٍّ له هو خالد بن زهير إلى امرأة كان يختلف إليها يقال لها أم عمرو، وهي التي كان يشبِّبُ بها، وحدث أن أرادت الغلام على نفسه فأبى ذلك حيناً، وقال: أكره أن يبلغ أبا ذُؤَيْبٍ، فقالت: ما يراك إلا الكواكب، ثم طاوَعَها فلما رجع إلى أبي ذُؤَيْبٍ، قال: والله إني لأجد ريحَ أُمِّ عمرٍو منك، ثم صار لا يأتيه إلا استراب منه، فقال خالد بن زهير:

يا قـومُ مـا بالُ أبِي ذُؤَيْبِ يَـمَـسُّ رأسِـي ويَـشَـمُّ ثَـوبِـي
كـأَنَّـنـي أَتَـوْتُـه بِـرَيْـبِ

ويقال: إن أبا ذُؤَيْبٍ كان قد أخذ هذه المرأة من عُوَيْمر بن مالك ـ ويقال: عمرو ابن مالك ـ قبل ذلك وأنه كان يرسل أبا ذُؤَيْبٍ إليها، فلما كبر أخذها أبو ذُؤَيْبٍ منه، وكان يرسل خالداً إليها، وخالد هو ابن أخت أبي ذُؤَيْبٍ أو ابن عمه كما تقدم، ولما كبر أبو ذُؤَيْبٍ أخذت خالداً، ويُروى أنَّ أبا ذُؤَيْبٍ قال لخالد بن زهير حين خالفَه على صديقته:

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص٢٢٠ الحَزرة: شجرة شديدة الحموضة.
(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص٢٢١ هونها: هوانها، شكاتها: القول القبيح، ملائك: رسائل، المحضأ: العود الذي تقدح به النار.

ما حُمِّلَ البُخْتيُّ عامَ غيارِه ... عليه الوسوقُ بَرُّها وشعيرُها
بأثْقَلَ مِمّا كنتُ حَمَّلْتُ خالداً ... وبعضُ أمانات الرجالِ غُرُورها
خليلي الذي دلّى لِغَيٍّ خليلَتي ... جِهاراً فكلاًّ قَدْ أصابَ عُرُورُها
فشأْنَكَها إنّي أمينٌ وإنَّني ... إذا ما تَحالَى مِثْلُها لا أَطُورُها
رَعَى خالدٌ سِرِّي لَيالِيَ نَفْسُهُ ... تَوالَى على قَصْدِ السَّبيلِ أمورُها
فلما تَراماه الشبابُ وغَيُّهُ ... وفي النفسِ منهُ فِتْنَةٌ وفُجُورُها
تَعَلَّقَهُ منها دَلالٌ ومُقْلَةٌ ... تظلُّ لأصْحابِ الشَّقاءِ تُديرُها
فإنَّ حَراماً أنْ أَخُونَ أَمانَةً ... وآمَنَ نَفْساً ليسَ عِنْدي ضَميرُها (١)

فأجابه خالد بن زهير يناقضه ويردُ عليه في قصيدةٍ يقول فيها:

لعلَّكَ إمَّا أُمُّ عَمْرٍو تَبَدَّلَتْ ... سواكَ خليلاً شاتِمي تَسْتَخيرُها
فإنَّ التي فينا زَعَمْتَ ومِثْلَها ... لَفيكَ ولكنِّي أراكَ تَجُورُها
ألمْ تَتَنَقَّذْهَا مِن ابنِ عُوَيْمِرٍ ... وأنتَ صَفِيُّ نَفْسِه وسَجِيرُها
فلا تَجْزَعَنْ مِن سُنَّةٍ أنتَ سِرْتَها ... فأوَّلُ راضٍي سُنَّةٍ مَنْ يَسِيرُها
فإنْ كنتَ تشكوُ مِن خَليلٍ مَخَانَةً ... فتلكَ الجَوازي عَقْبُها ونُصُورُها (٢)

فنرى أن خالداً يقول لأبي ذُؤَيْبٍ: إنِّي فعلتُ بكَ مثلَ فَعْلَتِكَ بابن عُوَيْمِر وقد نُصِرتُ عليك.

وهناك قصص أخرى تعتبر أبلغ في الدلالة على ما كان هناك من علاقات مُريبَة بين الرجل والمرأة، فيُروى أنّ رجلاً من هُذَيْل يقال له: "عامرُ بن العَجْلان" كان صديقاً

---

(١) المرجع نفسه جـ ١ ص٢٠٧، عام غياره، أي: عام ميرة أهله، البختي: البعير، وبعض أمانات: يقول: ما حمل هذا البختي من الطعام بأكثر مما حملت خالداً من الأمانة، خليله: هو خالد، عُرورُها: المَعَرَّةَ والعيب، تَحالَى: حلا، لا أطورها: لا أقربها، توالَى: تتابع، تراماه الشباب، أي: تم شبابه، الدلال: حسنُ الهيئة.

(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص٢١٢. تَسْتَخيرُها: تَستَعْطِفُها بِشَتْمي، تَجُورُها: تَجُور عنها، أي: تَحيد، تَنَقَّذْتها: تَنَجَّزْتَها وأخَذْتَها، صَفِيّ نفسه، أي: خاصة نفسه، سَجِيرُها: صَفِيّها.

لجارةٍ لأبي المُثلَّم الهذْلي ، وكان الرجل إذا أراد صديقتَه عَمَدَتْ امرأةُ أبي المُثلَّم إلى جارتها فجمعَتْ بينهما،ثم تنصرف عنهما،فيمكُث بذلك ما شاء الله أن يمكُث ، وحدثَ أنّ عامرَ بن العَجْلان أقبلَ ذاتَ يوم زائراً لصديقته، وأقبلت امرأةُ أبي المُثَلَّم بجارتها، فجمعت بينهما، فمكثا قليلاً ثم نَهَشَتْ عامرَ بنَ العَجْلان حَيَّة، فعَمَدَتْ كلّ من صديقته وامرأة أبي المُثَلَّم فجعَلَتا له خيمةً من الشجر تَكُنُّه من الشمس، وكانتا تأتيانه وتختلفان إليه بالطعام والشراب حتى استَقَلَّ وشُفِي وذهب إلى أهله(١).

ثم ما يروى من أنَّ مَعْقِل بنَ خُوَيْلد كان عنده ثلاث نسوة، وكانت امرأتان منهما تَؤُمَّان حَيّاً من شجَعَ ـ أشجَع قَيْسٍ ـ تريدان أن تَنظُرا إلى عُشّ بن جابرٍ، ويقال : إنه كان شاباً جميلاً، وحدثَ يوماً أن رجعَ معقل إلى بيته،فسأل الثالثة منهن : أين صاحبَتاك؟ قالت : خرجَتا تَؤُمّان عُشَّ بنَ جابرٍ تَنظُران إليه،فخرج في آثارهما وقد ثار غضباً،فأدرَك إحداهما فقَتلها،وضربَ الأخرى ضربةً بالسيف على يدها وكَفَّ عنها،وذكر الأصمعيُّ أنَّه ضربَها فقطع يدها لشيء بلغَه عنها. وقال مَعْقِل بن خُويلدٍ في ذلك :

أَلَمْ تَخْشَيْ خَليلَك أَوْ تُجلِّي ... إباكِ هُضَيْبَ عن بعضَ الخطابِ

أَقَرَّ العينَ أنْ حُزِمَتْ يداها ... وما إن تُحْزَمان على خضابِ

ومَقْعَدُهُنَّ أَنْدِيَةً إليها ... مُنكِّسَةً تُخَطِّطُ في التُّرابِ

فعادَ عليكِ أنَّ لَكُنَّ حَظّاً ... وَواقيةً كَواقيةِ الكلابِ

وما عَرَّيْتُ ذا الحيَّاتِ إلا ... لأَقْطَعَ دابرَ العيشِ الحُبَابِ(٢)

إلى غير ذلك من القصص التي قد تدلّ على فساد مجتمعهم،وتدلّ على ما كان عندهم من علاقاتٍ مريبة بين الرجال والنساء، وتطعن في الشرف والأعراض، ونحن لا ننكر مثلَ هذه القصص والحوادث، فقد صوَّرها شعرُهم، وسجّلَه شعراؤهم، ولكنا

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ١ ص٣٠٣.

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص٣٨٧ هُضَيْب : اسمها، الخطاب : المخاطبة، وأراد بالأب الزوج والعرب تدعو الزوج أباً، أندية : مجالس، تخطط في التراب : كما يفعلُ الحزين، حظ : أي عند الرجال، كواقية الكلاب : يعني أن الكلب مَوَقّىً، يُجْرَحُ فلا يموتُ، وهذا مثل ضربه لها، أي : تضربين كما يضرب الكلب فلهنَّ واقية كذلك، أي : ضربتُكِ فلم تموتي.

نقول: إنها حوادث فردية، لم تكن عامّة. وقد لا يَخلُو أي مجتمع أو أية قبيلة من حوادث فردية تسيء إلى سمعة البعض، وتطعَنُ في الشرف والعفة، ولكنها لا تُتَّخَذ ذريعةً للحكم على المجتمع أو القبيلة بالفساد بشكل عامٍّ. وهُذَيْل من القبائل العربية التي عُرفَ عنهم الحفاظ على الأعراض والشرف، فلا يُرْمَى العربيُّ بشيء أشدّ على نفسه من أن يُطْعَنَ في شرفه، أو يُرْمَى في عِرْضِه.

وعلينا أن نلاحظ أن الحوادث الفردية ليست قليلة في تأثيرها وشهرتها وإذاعتها بين الناس، فقد تشتهر بين الناس وتذيع على كل لسان، كالذي عُرف عن قِرْد بن معاوية بن تميم بن سَعْد بن هُذيل، الذي اشتهر في الجاهلية بغَيِّه وشقْوَته حتى ضُرِب به المثل فقيل: "أَزْنَى من قِرْد"(١) وما بالك إذا عرفنا أن من ولده أبا خِراش الهذلي(٢) الشاعر المخضرم المشهور، الذي أسلم وحَسُنَ إسلامُه، ثم ظُلْمَةُ الهُذَلية وهي امرأة فاجرة أَسَنَّتْ وفَنَيتْ فاشترتْ تيساً، وكانت تقول: أرتاح لنَبيبه ـ أي صياحه وهياجه ـ فقيل: " أَقْوَدُ مِنْ ظُلْمَة" و أَفْجَرُ من ظُلْمةَ"(٣). يقول ابن قتيبة: "كانت ظُلْمَةُ التي يضرب بها المثل في القيادة صبيَّة في الكتاب فكانت تضرِبُ دُوِيَّ الصبيان وأقلامَهم، فلما شَبَّتْ زَنَتْ، فلما أَسَنَّتْ قادت، فلما قعدت اشترت تيساً تُنَزِّيه(٤) على العَنْزِ"(٥).

بل إنه يقال: إن قوماً من هُذَيْل دفعهم الطيش والخفة والسَّفَه لما أرادُوا الإسلامَ فسألوا رسول الله ﷺ أن يُحِلَّ لهم الزنى، حتى عيَّرَهم بذلك حسانُ بن ثابت فقال:

سألَتُ هُذَيْلٌ رسولَ اللهِ فاحشةً ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بما جاءَت ولم تُصب(٦)

ولعل من الطريف أن نذكر ما يرويه المبّردُ عن مفاخرة كانت بين أَسَديٍّ وهُذَليٍّ، فيذكر أن أَسَدِيَاً وهّذلياً تفاخرا،فرضيا برجل ليحكم بينهما،فقال: إني لا أقضي بينكما إلا أن تجعلا لي عقداً وثيقاً ألا تضربا ولا تشتِما،فإني لستُ في بلادِ قومي

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص١٩٨.

(٢) المرجع السابق ص١٩٨.

(٣) القاموس مادة (ظلم) جـ ٤ /١٤٦.

(٤) تُنَزِّيه: تحمله على الوثبان.

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة جـ ٤ ص١٠٣.

(٦) ديوان حسان بن ثابت للبرقوقي ص٦٧ المكتبة التجارية.

ففعلا. فقال: "يا أخا بني أسد، كيف تفاخر العربَ وأنت تعلم أنه ليس حيٌّ أحبّ إلى الجيش ولا أبغض إلى الضيف، ولا أقلّ تحت الرايات منكم! وأما أنت يا أخا هُذَيْل، فكيف تُكَلِّمُ الناس وفيكم خلالٌ ثلاثٌ: كان منكم دليلُ الحبشة على الكعبة، ومنكم خولة ذات الـ ـيَيْنِ،وسألتم رسول الله ﷺ أن يحل لكم الزنى! ولكن إذا أردتما بيتَيْ مُضرَ، فعليكما بهذين الحيين من تميمٍ وقَيْسٍ، قوما في غير حفظ الله!"(١).

والظاهر أن هذا الرجل الذي ارتضيا به وحكمَ بينهما كان من تميمٍ أو قيسٍ.

وهكذا يتضح من القصص التي أوردناها،والتي قد تدلّ على فساد مجتمعهم أنها حوادث فردية أو شخصية، لا تؤدي إلى حكمٍ عامٍّ على القبيلة، وقد رأينا أن بعض الأشياء الفردية قد اشتهرت وذاعت على كلِّ لسانٍ حتى صارت مَضْرِب الأمثال.

فالحوادث الفردية عند هُذَيْل دفعت بعض الباحثين - كما تقدم - إلى الحكم عليهم بأنهم مجتمعٌ فاسدٌ، لا سيما من حيث العلاقات الشخصية بين الرجل والمرأة وما يطعن في الشرف والعفة.

والحق أن هذيلاً كانت تتمسك بالقيم والأخلاق العربية، ولا شكّ أن المحافظة على الشرف والعرض من أهم ما يحافظ عليه العربي، ويدافع عنه فلا شيء أشدّ على نفس العربي من أن يطعن في شرفه، أو يُرمَى في عِرْضِه.

وتبرز مكانة هُذَيْل الاجتماعية والأدبية عند العرب إذا لاحظنا كثرةَ رجالاتها وأعلامها، لا سيما مَن كانوا من أعلام الصحابة والتابعين،أو إذا لاحظنا كثرة العلماء والخطباء والقادة الذين ينتسبون إلى هذه القبيلة. هذا إلى كثرة الشعراء والأفذاذ الذين سجلوا بشعرهم صورةً صادقة عن حياتهم ومفاخرهم.

وقد ذكر ابن سَعْد منهم كثيراً ممن كانوا من أعلام الصحابة والتابعين، ولعل من أشهرهم عبدُ الله بن مسعود وقد تكلمنا عنه في الفصل السابق، ثم عتبة بن مسعود وهو أخو عبد الله بن مسعود لأبيه وأمه، وكان قديم الإسلام بمكة، وقد هاجر إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، ثم قدم المدينةَ فشهد أُحُداً، ويقال: إنه شهد بعد ذلك المشاهد كلَّها، ومات في خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة وصلى عليه عُمَرُ(٢)،

---

(١) الكامل للمبرد جـ ٢ ص١٠١.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٤ ص١٢٦ ط بيروت ١٩٦٠م.

ثم عُبَيْد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، ويكني أبا عبد الله ، وهو أحدُ الفقهاء السبعة بالمدينة، وكان عالماً ثقة وفقيها كثير الحديث والعلم، وكان يقول الشعر فسئل في ذلك فقال: أرأيتم المَصْدُور إذا لم ينفث أليس يموت؟ وتوفي بالمدينة سنة ثمان وتسعين وقيل سنة تسع وتسعين للهجرة(١).

وذكر منهم كذلك أبو عُمَيْس واسمه عتبة بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود الهُذَليُّ حليف بني زهرة، وكان عالماً ثقة. ثم المسعودي واسمه عبد الرحمن ابن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود، وكان عالماً ثقة كثير الحديث، ومات ببغداد، ويقال إنه اختلط في آخر عمره(٢). ثم حَمَل بن مالك بن النابغة الهذلي، وقيل: إنه أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه،ثم تحوَّل إلى البصرة فنزلها وأقام فيها(٣).

وذكر أن من الفقهاء والمحدثين والتابعين سنان بن سَلَمَةَ بن المحبِّق الهُذَليّ وكان أميراً على البحرين، وروي أنه حدَّث فقال: كنا أُغَيْلمةً بالمدينة في أصول النخل نلتقط البلحَ الذي يسمونه الخلال، فخرج إلينا عمر بن الخطاب، فتفرق الغلْمان وثَبَتُّ مكاني، فلما غَشيَني قلتُ: يا أميرَ المؤمنين إنما هذا ما ألقت الريح، قال: أرني أنظر فإنه لا يخفى عَليَّ، فنظر في حجري، فقال: صدقتَ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين ترى هؤلاء الآن،والله لئن انطلقتُ لأغاروا عليَّ فانتزعوا ما معي، قال: فمشى معي حتى بلَّغَني مَأمَني(٤).

ومن رجالاتهم أبو المَليح الهُذَلي، واسمه عامر بن أسامة بن عُمَيْر، وكان عالماً ثقة وله أحاديث، وتوفي سنة اثنتي عشرة ومائة، وروي أنه كان عاملاً على الأُبُلَّة، وكان يشهد الجمعةَ بالبصرة، ويقال: إنه أوصاهم إذا مات أن يأخذوا من شاربه وأظفاره(٥). ثم معاوية الهُذَلي، وقد ذكره ابن سَعْد مع مَن نزلَ الشامَ من أصحاب النبيِّ ﷺ، وكان من رواة الحديث(٦) وغيرهم كثير.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٥ ص٢٥٠.

(٢) المرجع نفسه جـ ٦ ص٣٦٦.

(٣) المرجع نفسه جـ ٧ ص٣٣.

(٤) المرجع نفسه جـ ٧ ص١٢٤.

(٥) المرجع نفسه جـ ٧ ص٢٢٠.

(٦) المرجع نفسه جـ٧ ص٤٢٢.

واشتهر من هُذَيْل عدد من الخطباء منهم أبو بكر الهذلي وهو عبد الله بن سُلْمِيّ كان خطيباً قَاصّاً، وعالماً بالأخبار وأيام الناس،وهو من رواة العرب، وروي أنه قال عندما فاخر أهل الكوفة: "لنا السَّاجُ والعَاجُ، والديباجُ والخراجُ، والنهر العجَّاجُ"(١) ثم أبو المليح الهُذَلي الذي كان من الخطباء والمشهورين. ويقال إن من أشهر القصاص عند العرب أبا بكر الهُذَلي ثم مسلم بن جُنْدب، وهو أبو عبد الله مسلم بن جندب الهذلي القاضي، كان من فصحاء الناس، وكان معلمَ عُمرَ بن عبد العزيز ويقال: إنه كان يقضي بغير رزق، وتوفي سنة مئة وست هجرية،ويعتبر من كبار القصاص، وكان قاصّ مسجد النبيّ ﷺ بالمدينة، وكان إمامَهم وقارئهم، وفيه يقول عمر بن عبدالعزيز: "مَنْ سَرَّه أن يسمعَ القرآن غضّاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب"(٢).

واشتهر من هذيل رجالات وصلوا مرتبةَ القادة والولاة، وذلك مثل سنان بن مسلمة بن المحبِّق الهذلي، الذي كان أميراً على البحرين(٣)، ثم عمرو بن عُمَيْس بن مسعود الذي كان واليّا لعليّ على القُطْقُطَانة، فقتله هناك عامل معاويةَ الضحَّاك بن قيس الفهريُّ(٤) إلى غير ذلك من رجالاتهم الذين كانوا ولاة أو أمراء على الأمصار.

وكان لرجالات هُذَيْل مكانةً مرموقة في العصر الأموي كذلك، وكانوا مقدمين عند الخلفاء، فيروى أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى زياد: انظر رجلاً يصلح لثغر الهند فولِّه. فكتب إليه: إن قِبَلي رجلين يصلحان لذلك: الأحْنَفُ بن قيس، وسِنان بن سَلَمة الهُذَلي. فردّ عليه معاوية: بأيِّ يَوْمَي الأحنف نكافيه: أبخذلانه أم المؤمنين، أم بسعيه علينا يوم صفين؟ فوجه سناناً. فكتب إليه زياد: إن الأحنف قد بلغَ من الشرف والحِلْم والسؤدد ما لاتنفعه الولاية ولا يضره العزل(٥). ويتضح من ذلك مكانة سِنان بن سَلَمة الهذلي عند معاوية، وأنه فضَّلَه على غيره ليكون عاملاً له، مع أن زياداً -كما يبدو ذلك- كان يرغب في تولية الأحنفِ بنِ قَيْس.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص٣٥٧.

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص٣٦٧.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص١٢٤.

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص١٩٧.

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة جـ ١ ص٢٢٧.

واعتقد أن بعض رجالاتهم كانوا يتطلعون إلى الإمارة والسيادة، وقد صوَّر شاعرُهم حبَيب بن عبد الله الهذلي، وهو المعروف بالأعلم،طريقَ السيادة وأنه طويل صعب كله عناء ومشقة فقال:

وإنَّ سيادَةَ الأقوامِ فاعْلَمْ ... لها صعداءُ مَطْلَبُها طويلُ

أترجُو أن تَسُودَ ولا تُعَنَّى ... وكيف يَسُودُ ذو الدَّعَةِ البَخيلُ[1]

والظاهر أن كثيراً من رجالاتهم كانوا أُمَوِيِّي النزعة، فأحبّوا الأمويينَ وأخلصوا إليهم، حتى إنهم كانوا ضد المنشقين على بني أمية، كعبد الله بن الزبير الذي نصب نفسه خليفةً على الحجاز، فكانوا يحقدون عليه حقداً شديداً، فلما ظهر عبدُ الله بن الزبير في الحجاز وغلبَ عليها، بعد موت يزيدَ بن معاوية، دخل عليه أبو صخر الهُذَلي في وفد هُذَيْل، وقد جاؤوا ليقبضوا عطاءهم، وكان ابنُ الزبير عارفاً بهواه وميوله إلى بني أمية، فمنعه عطاءَه، فقال:علام تَمنَعُني حقاً لي، وأنا امرؤ مسلم ما أحدثت في الإسلام حدَثاً ولا أخرجت من طاعة يداً؟ قال: عليك بني أمية فاطلب عندهم عطاءَك!

قال أبو صخر: إذاً أجدُهم سباطاً أكُفُّهم ، سَمْحَةً أنفسُهم، بذلاءَ لأموالهم وهَّابين لمجتديهم، كريمةً أعراقُهم شريفةً أصولهم، زكيةً فروعهم ، قريباً من رسول الله ﷺ نسبُهم وسببُهم ليسوا إذا نسبوا بأذناب ولا وشائظ[2] ولا أتباع، ولا هم في قريش كفقعة القاع، لهم السُّودد في الجاهلية والملكُ في الإسلام، لا كمن لا يعدُّ في عيرها ولا نفيرها، ولا حكم آباؤُه في نقيرها ولا قطميرها، ليس من أحلافها المطيَّبين، ولا من ساداتها المُطْعمين، ولا من جُودائها الوهَّابين، ولا من هاشمها المنتخبين، ولا عبد شمسها المُسَوَّدين، وكيف تقابل الرؤوس بالأذناب وأين النصلُ من الجفْنِ؟ والسِّنان من الزُّج؟ والذُّنابَى من القُدامَى، وكيف يُفَضَّل الشحيحُ على الجواد، والسوقَةُ على الملك، والجميع بُخْلاً على المطعم فَضْلاً؟.

فغضبَ ابنُ الزبير حتى ارتعدَت فرائصُه، وعَرِقَ جبينُه، واهتزَّ من قَرْنِه إلى قدمه، وامتْقَعَ لونُه، ثم قال له: يا ابن البَّوالةِ على عقبيها ويا جاف يا جاهل أما والله لولا

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص٢٧٥، وديوان الهذليين ٢ /٨٧.

(٢) الوشائظ: الدخلاء.

الحرمات الثلاث، حرمة الإسلام، وحرمة الحرم، وحرمة الشهر الحرام، لأخذت الذي فيه عيناك!

ثم أمرَ به إلى السجن فحبس مدةً ثم استوهبته هُذَيْل، ومن له بين قريش خَؤُولةٌ في هُذَيْل فأطلقه بعد سنة وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبداً[1].

فنرى مدى جرأة أبي صخر أمامَ ابن الزبير، ونرى كذلك مدى حُبِّه وتعصبه للأمويين،ويقال: إنه لما كان عامَ الجماعة، وولي عبد الملك وحجَّ لقبه أبو صخر فلما رآه عبدُ الملك قرَّبَه وأدناه، وقال له: إنه لم يخف عليَّ خَبَرُك مع الملحد، ولا ضاع لك عندي هواك ولا موالاتك. فقال: أما إذا شفى الله منه نفسي، ورأيتُه قتيل سيفك،وصريع أوليائك،مصلوباً مهتوك الستر، مفرَّق الجمع، فما أبالي ما فاتني من الدنيا. ثم أنشد قصيدة بين يديه يقول فيها:

عَفتْ ذاتُ عِرْقٍ عُصْلُها فرِئامُها ... فَدَهْناؤُها وَحْشٌ وأَجْلَى سَوامُها

وإنَّ أميرَ المؤمنينَ الذي رَمَى ... بجَأْواءَ جُمْهُورٍ تَسيلُ إكامُها

من أرض قُرَى الزيتونِ مكَة بعدَ ما ... غُلِبْنَا عليها واسْتُحِلَّ حرامُها

وإذا عاثَ فيها الناكثُون وأفْسَدوا ... فخِيفَتْ أقاصيها وطار حمامُها

فَشَجَّ بهم عَرْضَ الفلاةِ تَعَسُّفاً ... إذا الأرضُ أَخْفَى مُستواها سَوامُها[2]

إلى آخر القصيدة.

ويقال: إن عبد الملك أمرَ له بما فاته من العطاء، ثم مثلَه صلةً من ماله، وكساه وحمَّله[3].

ولعلَّ مما يوضح مكانة هذيل بين القبائل العربية الأخرى، ما جرى بين معاوية بن أبي سفيان ودَغْفَل النسّابة،حين أتى إليه دَغْفَل مع وفد من العراق،وحدث أن سأله معاوية عن مسائل تتعلق بمكانة القبائل العربية. وعلينا أن نلاحظ أن هُذَيْلاً تنتسب

---

(١) الأغاني جـ٢٣ ص٢٦٩ ط بيروت.

(٢) الجأواء: الكتيبة، والجمهور: الكثير، أرض الزيتون: يقصد الشام يريد أنه رَمَى مكة بالرجالِ من أهل الشام.

(٣) الأغاني جـ١٣ ص٢٧٢.

إلى مضر، فهي هُذَيْل بن مُدْرِكة بن إلياس بن مضر بن نزار ـ كما سبق بيانه ـ فيقال: إنه قَدِمَ وفدٌ من العراق على معاوية رضي الله عنه وفيهم دَغْفَل" فقال له معاوية: يا دَغْفَل، أخبرني عن ابني نزار ربيعة ومضر أيّهما كان أعزّ جاهلية وعالمية ؟ فقال: يا أمير المؤمنين مضر بن نزار كان أعزّ جاهلية وعالمية، قال معاوية: وأيّ مضر كان أعزّ؟ قال: بنو النَّضْر بن كِنانة، كانوا أكثر العرب أمجاداً، وأرفعهم عماداً، وأعظمهم رماداً، قال: فأيّ بني كِنانة كان بَعْدَهم أعزّ؟ قال: بنو مالك بن كِنانة، كانوا يعلُون من ساماهم، ويكفُّون مَن ناواهم، ويصدقون من عاداهم، قال: فمن بعدهم، قال: بنو الحارث بن عبد مناف بن كِنانة، كانوا أعزّ بنيه وأمنعهم، وأجودهم وأنفعهم ، قال: ثم مَن بَعْدَهم؟ قال: بنو بكر بن عبد مَناة، كان بأسُهم مرهوباً وعدُوّهم منكوباً،وثأرُهم مطلوباً، قال: فأخبرني عن مالك بن عبد مناة بن كِنانة وعن مُرَّة وعامر ابني عبد مناة، قال: كانوا أشرافاً كراماً، وليس للقوم أكفاء ولا نظراء. قال: فأخبرني عن بني أَسَد؟ قال: كانوا يطعمون السّديف، يكرمون الضيوف، ويضربون في الزُّحوف، قال: فأخبرني عن هُذَيْل؟ قال: كانوا قَبيلاً (جدَّ)[1] أكياس، أهلُ منعة وباس،ينتصفون من الناس، قال: فأخبرني عن بني ضُبَّة؟ قال: كانوا جمرة من جَمَرات العرب الأربع، لا يُصْطَلَى بنارهم، ولا يفاتون بثارهم، قال: فأخبرني عن مُزَينة؟ قال: كانوا في الجاهلية أهل منعة، وفي الإسلام أهل دَعَة قال: فأخبرني عن تميم؟ قال: كانوا أعزّ العرب قديماً، وأكثرها عظيماً، وأمنعها حريماً،قال: فأخبرني عن قيس؟ قال: كانوا لا يفرحون إذا أديلوا ولا يجزعون إذا ابتلوا، ولا يبخلون إذا سُئلوا. قال: فأخبرني عن أشرافهم في الجاهلية قال: غَطَفان بن سَعْد، وعامر بن صَعْصَعَة، وسليم بن منصور، فأما غطفان فكانوا كراماً سادة، وللخميس قادة، وعن البَيْض ذادة، وأما بنو عامر فكثير سادتهم مخشيَّةٌ سطوتُهم، ظاهرة نجدتهم، وأما بنو سليم فكانوا يدركون الثأر، ويمنعون الجار ويعظمون النار، قال: فأخبرني عن قومك بكر بن وائل وأصدقني؟ قال: كانوا أهل عزٍّ قاهر، وشرف ظاهر، ومجد فاخر، قال: فخبرني عن إخوتهم تغلب؟ قال: كانوا أسوداً تُرهب، وسماماً لا تُقرب، وأبطالاً لا تُكْذَب..."[2].

---

(١) في ذيل الأمالي والنوادر للقالي ص٢٥: «كانوا قليلاً أكياس» وهو خطأ واضح لم ينتبه له محققوه، والصواب ما أثبتناه.

(٢) ذيل الأمالي والنوادر للقالي ص٢٥.

فنرى أن دَغْفَلاً أخبر عن هُذَيْل، وأنه اهتم بجانب القوة والبأس، والانتصاف من الناس،والأخذ بالثأر وما إلى ذلك، مما يدلّ على أنه شاع عنهم كثرة الحروب والأيام التي خاضوها مع غيرهم من قبائل العرب،والحقّ أنه عُرِفَ عنهم ذلك، وكانت حروبهم وأيامهم من الكثرة بمكان كما سنوضح ذلك فيما يأتي:

حروب هذيل وأيامها:

كانت كل قبيلة في الجاهلية بمثابة دولة مستقلة، لها كيانُها الخاصُّ، فشعبها يتكون من أفرادها وأبنائها، وكان لهاوطنُها وحرمُها الذي تحافظ عليه وترعاه وتدافع عنه وتحميه، ولذلك كانوا يسمونه "الحِمَى" لأنه يشتمل على الأرض التي تقوم عليها مَضارِبُ القبيلة، ومناطق الكلأ التي ترعى فيها أنعامها ودوابها. يقول الأستاذ أحمد الشايب: "إن القبيلة العربية كانت صورةً مصغَّرةً للدولة العامة فيها خواصُّها الرئيسية[1]، فلو ذهبنا نطبق نظريات أصول الدولة وهي الطبيعة والأسرة والعقد الاجتماعي والقوة والإرادة لاستطعنا أن نجدَ مظاهرها في بناء القبيلة الجاهلية بشكل ما؟[2].

وكانت العلاقة بين القبائل في الجاهلية تقوم غالباً على الحذَرِ والتربص وانتهاز الفرص والتنافس، كما يقع ذلك بين الدول في كلّ العُصور، وهذا الصراع الذي يقع بين الدول الحديثة ليس إلا صورة لما كان يقع بين القبائل البدوية القديمة،كما قال الأستاذ أحمد الشايب: " إن الصلات بين القبائل كانت قائمة على التنافس والتربص وانتهاز الفرص للظفر بمالٍ أو شَرَفٍ، وهذا هو ما نراه بين الدول في كلّ العصور، فهو تنافس في السيادة والاستعمار وكسب الأسواق التجارية ومناطق المواد الأولية، وليس الصراع بين الدول الحديثة إلا صورة لما كان بين القبائل البدوية القديمة،فالأسباب واحدةٌ وإن اختلفت الوسائل واتسعت الميادين، وهذا التنافس بين القبائل الجاهلية يرجع إلى عاملين رئيسين[3] ماديّ وأدبيّ، فهو إما طمع في إبل أو مرعى أو بئر أو فرَس

---

(١) كذا وهو خطأ، والصواب: الرئيسة.

(٢) تاريخ الشعر السياسي للشايب ص٣٤.

(٣) في الأصل رئيسيين وهو خطأ شائع وفيه أيضاً «وهذا التنافس يرجع بين القبائل» وهو أسلوب ضعيف التكوين.

أو متاع ما، وإما رغبة في رياسة أو أخذ بثأر، أو اعتزاز بنفس ، أو مفاخرة بقوة، أو غضب لجار أهين أو عهد نقض أو مجاراة لسفيه"(١).

فحوادث الصراع والحروب بين القبائل العربية في الجاهلية كانتْ كثيرةً ، لا سيما حَوْلَ امتلاك ينابيع المياه، ومناطق الكلأ التي هي مصدر الحياة عندهم، وقد كثرت عندهم الغاراتُ والسلبُ والنهبُ، وكثر السَّبي فيما بينهم. وكان الصراع كذلك على المركز الأدبيّ والاجتماعيّ والشرف وما يتعلق به من الأخذ بالثأر وحماية الجار. وتُعرف حوادثُ الصراع بين العرب في الجاهلية باسم أيام العرب.

وقبيلتنا هُذَيْل مشهورة بكثرة الحروب والأيام التي خاضتها مع جيرانها من قبائل العرب، كثرةً لفتت نظر العلماء والنقاد، قال يونس بن حبيب: " ليس في هذيل إلا شاعر أو رامٍ أو شديد العدو"(٢) وقال الأصمعي: "إذا فات الهُذَلي أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه"(٣) فهذا يدلّ دلالة واضحة على كثرة شعرهم، ومن جهة أخرى يدلّ على فروسيتهم وشجاعتهم، والحقّ أنَّ من يقرأ أشعارَهم يبهره كثرةُ حروبهم وأيامهم، فكأنها كانت شغلهم الشاغل، وعملهم الدائم فلا ينتهون من موقعة إلا ويفكرون في أخرى، حتى عُرفَ ذلك عنهم، وقد سبق قول دَغْفَل النسابة حين قال عنهم: "كانوا قبيلاً (جدًّ) أكياس، أهلُ منعة وباس ينتصفون من الناس(٤)" وصار لهذيل مهابة عند القبائل. ومن ناحية أُخرى كَثُرَ أعداؤهم وخصومُهم، حتَّى كانت لهم أيام مع قبائل كثيرة أشهرها سُلَيم، وخُزاعة وفَهْم ، وكِنانة، وهَوازن، وجُهَيْنَة والأَزْد وغيرهم.

ولا شكّ أنَّ كثرةَ الأيام والوقائع التي خاضتها هُذَيْل كانت سبباً في كثرة أشعارِهم فقد سَجَّل شعراؤهم تلكَ الأيام، وقاموا برثاء قتلاهم، ثم تحدثوا عن انتصاراتهم ومُنْجَزاتهم، وما حقَّقوه من الأخذ بالثأر والانتقام لقتلاهم، وكذلك تحدَّثوا عن قوَّتهم وبسالتهم واستماتتهم في الدفاع عن شَرَفِهم وشَرَفِ قبيلتهم وحسبها ومكانتها.

---

(١) تاريخ الشعر السياسي للشايب ص٤٥.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص١٧٤.

(٣) الأغاني جـ ٢١ ص٢٢٣ ط بيروت ـ وفي الأصل «إذا فاتك» وهو خطأ واضح لم ينتبه له المحققون.

(٤) ذيل الأمالي للقالي ص٢٥.

وهناك أيام كثيرة خاضتها هُذَيْل، وجاءت على أَلْسِنَة شُعَرائهم، وسجّلوها في أشعارِهم،ولكن الرواة لم يتحدَّثوا عنها، ولعلَّ الرواة كانوا يتحدثون عن أشهرِ تلك الأيام والوقائع التي خاضوها مع غيرهم. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يَدُلُّ على كثرة أيامهم وحروبهم، فحقاً إنها كانت قبيلة الحرب والقتال، والصراع والنزاع. وبلغ من وَلَعهم بالحروب والأيام أنها وقعت فيما بينهم أيضاً، بين بطون هُذَيْل نفسها، فكان القتال بين العشيرة والعشيرة من هُذَيْل، كما سنتحدث عن ذلك في موضعه.

وكانت العداوة على أشدِّ ما تكون بين هُذَيْل وفَهْم، وكانت الغاراتُ والحروب دائمةً بينهما، فمن الأيام المشهورة بينهما (يومُ نِيات) وهو يوم الأطراف، فيروى أن قوماً من بني مُعاوية بن تميم بن سَعد بن هُذَيْل، ومعهم غاسلُ بنُ غُزَيَّة الجُرَبيُّ وهو من هُذَيْلٍ كذلك،خرجوا يريدون فَهْماً، فساروا حتى إذا بلغوا السَّراةَ لقيَهُ رجلٌ منهم فقال :أين تريدون؟ قالوا: نريد فَهْماً باللَّيث، قال :أفلا أَدُلُّكم على أَخْمَرَ دارٍ من فَهْم؟ هذه بنو خَوْفٍ ـ وهم بطن من فَهْم ـ عندكم بِنيَاتٍ فانصبُوا عليهم فبيِّتُوهم وقَتلُوهم بين الأطراف، ثم انحرَفوا آخرَ الليل، وقال رجلٌ منهم : أيُّها القوم ارجعوا من طريقكم التي جئتم منها، فخرجوا فسلكوا في شِعْبٍ يقال له دَرادِرُ، ثم سارُوا حتّى قَدموا لدارٍ من بني قُرَيْم ـ وهم حي من هُذَيْل ـ بالسَّرْوِ، وقد لصقت سيوفُهم بأغمادها بالدَّم، ووجدوا خِباءَ إياس بن مُقْعَد القُرَّميّ، فقال لهم: مَنْ بيَّتم ؟ قالوا بَيَّتْنا بني خَوفٍ، ثم دعا لهم بطعامٍ وقال: اخرجُوا، وخرج يسوقهم حتَّى صبَّهم بجوف طريقِ الرجال، وذهبوا ثم انحرفَ راجعاً، فلقي طلب فَهْم يطلُبُهم فقالوا: هل رأيتَ القومَ؟ قال: لقيتُ قوماً بثنية عَرْعَر مع الصبحِ وهم الآن بعُرْنَةَ أو بنعمان، فارتدوا عنهم . ومما قاله غاسلُ بنُ غُزَيَّة الجُرَبيُّ في ذلك اليوم:

أَمِنْ أُمَـــيَّـــةَ لا طَيْفٌ أَلَمَّ بنا ... بجانبِ الفَرْعِ والأَعْراءُ قد رَقَدُوا

وقد شَهِدْتُ بني خَوْفٍ يَلُفُّهُمُ ... تحتَ العَجاجَةِ منّا عارِضٌ بَرِدُ

حينَ السيوفُ بأيدي القومِ ناهِلَةٌ ... تَصْدُرُ عَنْهم وفيهِمْ تارةً تَرِدُ (١)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٨٠٥. الأعراء: قوم لا يُهِمُّهم الأمرُ ولا يهتمون بأصحابهم، واحدهم «عِرْو». يقال: هو عرو منه.

ومن الأيام المشهورة بينهما يوم (ذي حَماط) وفيه خرجتْ غازيةٌ من بني قُرَيْمٍ من هُذَيْل يريدون فَهْماً، وساروا حتى أصبحوا على ماءٍ يقال له ذُو حَماطٍ. الوقت نفسه ، خرجتْ غازيةٌ من فَهْم يريدون بني صاهلَة من هُذَيْل حتى طلعوا لذي حَماطٍ، فالتقى الجميعُ هنالك، فاشتعل القتال بينهما، وكانت الدائرة على فَهْم، إذ قتلَتْهُم بنو قريم ولم يُبْقُوا منهم غيرَ رجلٍ واحدٍ من بني هلالِ بنِ عَلْقَمَة هرب عارياً، فقال سَلْمَى بن المُقْعَد القُرميُّ في ذلك اليوم:

وأفْلَت منا العَلْقَمِيُّ تَزَحُّفاً ... وقدخَفقتْ بالظَّهْرِ واللُّمَّة اليَدُ
جَريضاً وقد ألقَى الرِّداءَ وراءَهُ ... وقد نَدرَ السَّيْفُ الذي يتقَلَّدُ
فوالله لولا قَتْلُنا مَن وراءَهُ ... لَظَلَّتْ عليه أُمُّ شِبْلَيْنِ تَمْعَدُ
جمعْنَا عليهم طائفَيْهِمُ بغَارَةٍ ... هزيمٍ كما انقارَ الخِباءُ المُشَدَّدُ
بطعنٍ وضَرْبٍ واعتناقٍ كأنَّما ... يَلُفُّهُمُ بينَ الحَمائطِ أبْرَدُ (١)

وكثيراً ما كانت هُذَيْل تتغلَّب على فَهْم وتقتلُهم وتُبيحُ ديارَهم،ومما يُروى من ذلك يوم (صُورَةَ) الذي يرويه الجُمَحيُّ، وخلاصته أن قوماً من فَهْم يقال لهم بنو لأْيٍ وكان سيّدُهم رجلاً منهم يقال له حبيب، قد أمسوا بصورةَ وهو موضع قرب صَدْرِ يَلَمْلَمَ، فعلم بأمرهم بنو قُرَيم بن صاهلة من هُذَيل، فبيَّتَهُم بنو قُريم وقتلوا حبيباً سيّدَهُم وأباحوا دارهم،فقالت في ذلك امرأة من فَهْم، يقال لها ذِئْبُ ابنةُ نُشْبَة بن لأيٍ:

أَلا إنَّ يومَ الشرِّ يومٌ بِصُورَةٍ ... ويومُ فناءِ الدَّمْعِ لو كان فانيَا
لعَمْري لقد أبْكَتْ قُريمٌ وأوْجَعُوا ... بِجزْعَةِ بطنِ الغيلِ مَن كان باكيَا
قتلتُم نجوماً لا يُحَوَّلُ ضيفُهُمْ ... ولا يَذْخَرُ ونَ اللحمَ أخْضَرَ ذوايَاً
عمادُ سَمائي أصبَحَتْ قد تَهَدَّمَتْ ... فَخِرِّي سَمائي لا أرى لَكِ بانيَا (٢)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٧٩١ تمعد : تأكل، طائفاهم: ناحيتاهم، هزيم: سريعة. انقار: سقط، الحمائط: شجر واحدتها حماطة، أبرد: سحاب فيه برد.

(٢) المرجع نفسه جـ ٢ ص٨٤٩.

فهذه المرأة من فَهْم ترثي القتلى، وتصور جزَعَها وأساها على سيِّد القوم حبيب وتصف ما حَلَّ بهم من عظم المصيبة،وهول الفجيعة،التي أنزلتها بهم بنو قُرَيْم من هُذَيْل حيث فتكوا بهم، وأباحوا دارَهم في يوم صُورةَ.

ولعل يوم (الغار) كان منْ أشدِّ الأيام التي كانت بين هُذَيْل وفَهْم،وفيه خرجت غازيةٌ من بني قَيْنِ بن فَهْم يريدونَ هُذَيْلاً، وكان عددهم فيه بين عشرين وثلاثين رجلاً، وحَدَثَ أن وجدُوا بطريقهم غازيةً من بني صاهلة ومن بني قُرَيْم من هُذَيْل وذلك في موضعٍ يقال له "أَعْيُن" فدخل بنو القَيْن من فَهْمٍ في غار هناك وطلبهم بنو قُريم فلم يستطيعوا ذلك، فكانوا إذا جاؤوهم تلقَّتْهم بنو قَيْنٍ بالنبل، فمن أَطلعَ رأسَه من بني قُريم رموه بالنبل، فما كان من بني قُريمٍ حين رأوا ذلك، إلا أن جمعوا الحطبَ ورموه عند سُدَّة الغار، ثُمَّ حرَّقوا عليهم الغارَ،وقال في ذلك شاعر بني قُريم:

يـأ أيُّهـــا القَـــيْنُ أَلا تَسَـــفَّعُ إنَّ الدخـــانَ بالسَّـــراةِ يَـنفْعُ(١)

فنرى أن بني قريم أحرقوا فَهْم بالنار في داخل الغار،ومات جميعُ من بالغار حرقاً بالنار، وكان هذا الفعل من البشاعة بمكان، لأنه لا يليق بالحروب، وذكر السُّكَّريّ أن هذه الفعلة لم يرضها أحدٌ من قومهم(٢). ويقال إن شاعراً من فَهْم قال في ذلك اليوم:

هلاّ قَـتَلْتُم وقَـتْلُ القـومِ منْ خُلُقِ وقَـدْ قَـدَرْتُمْ على مَن كـان بالغـارِ

أَلَمْ تَخـافُـوا عَلَيْكم مـثلَ ذلكُمُ لَحَاكم اللهُ ما التَّحريقُ بالنَّارِ؟!!(٣)

وكانت الأيام كثيرة مع قبيلة سُلَيم في الجاهلية،واستمرت الحرب بينهما حتى أنعم الله بالإسلام، وحتى قال في ذلك رسول الله ﷺ:

"يا هُذَيْل لا أُوصِيَنَّكُم بسُلَيْم، ويا سُلَيْم لا أوصِيَنَّكُم بهُذَيْل"(٤).

ومن الأيام المشهورة بين هذيل وسليم يوم"القَدُوم" وهي ليلة مدْفارٍ، وفي هذا اليوم دارت الدائرة على هُذَيْل، وكان بين بني ظَفَرٍ من سُلَيم وبني خُناعة من هُذَيل حرب دائمة، وحدث من ذلك أن رجلاً من بني خُناعة دلَّ بني ظَفَرٍ على بني واثلةَ بنِ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٨٥٣. تسفع: تصلى قائماً، السَّراة: موضع.

(٢) المرجع نفسه جـ ٢ ص٨٥٣.

(٣) المرجع نفسه جـ ٢ ص٨٥٣.

(٤) المرجع نفسه جـ ٢ ص٧٦٣.

مطْحَل - من هُذَيْل - وهم بالقَدُوم من نَعمان، فبيتوهم، وقلتوا ابني واثلةَ خالداً ومَخْلَداً وصبيةً ثلاثة من بني حُراق، وقال المُعْترضُ بن حَبْواء الظَّفريُّ من سُلَيْم في ذلك اليوم:

قَـتَـلْنَا مَـخْلَداً وابْنَيْ حُـرَاقٍ ... وآخَـرَ جَـحْـوَشـاً فـوقَ الفَطِيمِ

وخـالـداً الذي تَـأوي إلـيـه ... أَرامِلُ لا يَؤُبْنَ إلى حَـمِـيمِ

فـإمَّـا تقـتلوا نَفَـراً فـإنَّا ... فَـجَـعْناكُمْ بأصحابِ القَدُومِ[1]

فأجابه عبدُ مناف بن رِبْعٍ الهُذَليّ في قصيدة منها:

أَلا أَبْلِغ بني ظَفَـرٍ رسـولاً ... ورَيْبُ الدَّهرِ يَحْـدُثُ كلَّ حِينِ

ثم يذكر في قصيدته هزائم سُلَيْم أمامَ هُذَيْل ويُعدد بعضَ قتلاهم، ثم يتوعدهم ويهددهم ويذكر أنهم لا يستطيعون حمايةَ أنفسهم من هُذَيْل فيقول:

وإنا قـد قَـتَلْنَا مَن عَلِمـتُمْ ... ولسـتُم بَعْـدُ في قُفٍّ حَـصِينِ[2]

ثم كان يوم "المطَاحِل" وهو يومُ أَنْف عَاذ، وذلك أن المعترضَ بنَ حَبْواء الظَّفريَّ خرج في العام التالي معاوداً غزو هُذَيْل،ولم تكن هُذَيْل غَزَتْهم بين كذلك، وكان في بني سُلَيْم رجلٌ منهم،وكان دليلَ قومه على أخواله من هُذَيْل، وأمُّهُ امرأةٌ من بني جُرَيْبِ بن سَعْد، فدلَّهم على بَني قِرْدٍ بأنف بلَدٍ، وهما داران إحداهما فوق الأخرى، وبينهما قريبٌ من ميلٍ،ثم إنّ ابنَ الجُرَبيَّة دليلَ بني سليم - وكان اسمه دُبَيَّةُ - ذهبَ إلى هُذَيْل، فقالوا له: أي ابنَ أُخْتنا، أتخشَى علينا من قومك مَخْشىً؟ قال: معاذ الله، فصدقوه وأكرموه، وتحدثوا معه إلى الليل، ثم قام كلّ رجلٍ منهم إلى بيته، وحدثَ أن تسلَّلَ من بينهم أثناءَ الليل، فَرَمَقَهُ رجلٌ منهم، فأوجسَ منه خيفةً، فحذرَ بنو قِرْد، وأرسلوا إلى أهلِ الدار، فاستعد كلّ رجل منهم في بطنِ بيته، وحمل كلّ رجلٍ منهم سيفَه ونبلَه، وكان دُبَيَّةُ قد رجعَ إلى قومه وحَدَّثَهم بمكان الدارين، فقدموا وأرسلوا مئةَ رجلٍ نحو الدار العليا، ومئةَ رجلٍ نحو الدار السفلى في أصلِ الجبل، وتواعدوا فيما بينهم طلوعَ القمرِ، فظهر القمرُ للأَسْفَلينَ قَبْلَ الأَعْلَيْنَ، فأغارَ الذين بدا لهم القمرُ، فقتلوا رجلاً من بني قِرْدٍ يقال له الحارثُ، فخرج كلُّ رجل منهم بسيفه من

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٦٧٨ والجحوش: الصبي ابن ثلاث أو أربع سنين.

(٢) المرجع نفسه جـ ٢ ص٦٨١.

بيته،ثم شدُّوا عليهم فهزموهم،فلم يَرُعِ الأَعْلَيْنَ إلا هؤلاء الأسفلُون يَطرُدونهم بالسيوف، ويقال: إنه لم ينجُ منهم في تلك الليلة إلا ستون رجلاً من المئتين، وذهب المعترضُ بن حَبْواء الظَفريُّ وهو يرتجز ويقول:

إنْ أُقْتَلِ اليومَ فماذا أَفْعَلُ[1]
شَفَيْتُ نَفْسِي مِن بني مُؤَمِّلِ
ومن بَني واثِلةَ بن مِطْحَلِ
وخالِدٍ رَبِّ اللِّقاحِ البُهَّلِ
يَعِلُّ سيفي منهُم ويَنْهَلُ
عَرَكْتُ فيهم كَلْكَلاً بكَلْكَلِ

ثم أدركه رجلٌ منهم فقتلَه، وقبضوا على ابنِ الجُرَبيَّةِ الدليل وقتلوه. ويروى أن جيش سُلَيم في تلك الليلة كان فيه حمارٌ ولذلك سمي جيش الحمار، وقال عبدُ مناف بنُ رِبْعٍ الجُرَبُّي في ذلك اليوم:

ألا ليتَ جيشَ العيرِ لاقُوا كتيبةً ثلاثينَ منَّا صِرْعَ ذاتِ الحَفائلِ
فِدىً لبني عَمْرٍو وآلِ مُؤَمِّلٍ غَداةَ الصباحِ فِدْيَةً غيرَ باطلِ
هُم منعوكُمْ من حُنَيْنٍ ومائِه وهم أسْلَكُوكُمْ أَنفَ عاذِ المَطاحِلِ
تَرَكْنا ابنَ حبْواءَ الجَعُورِ مُجَدَّلاً لَدى نَفَرٍ رؤُوسُهُمْ كالفَياشِلِ[2]

ومن الأيام المشهورة بينهما يومُ "ظَهْرِ الحَرَّة" وفيه دارت الدائرةُ على سُلَيْم والحق أنَّ هذا اليوم كان عن طريق الخدعة ـ وقد روي أن بني صاهلة من هُذَيْل كانوا يطلبون وِتْراً في بني سُلَيْم، وكانت بنو صاهلة في أقصى هُذَيْل نحو اليمن، وحدث أنْ جاءَهم رجلٌ من هُذَيل يقال له العَجْلان بنُ خُلَيْدَة فقال: انطلقوا أدلكم على بني سُلَيْم، وكان العجلان يوالي بني سُلَيْم، فخرجتْ معه بنو صاهلة حتى أَوْرَدَهم ماء

---

(١) كذا ضبط الفعلان بالضم في الموضعين (أفعلُ، ينهلُ) مع أن القافية مكسورة!!!

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٦٨٢ العير: الحمار، صِرْعها: ناحيتها، ذات الحفائل: بلد، المطاحل: موضع، أنفها: أوَّلها، رؤوسهم كالفياشل: يريد تركنا رؤوسهم لا شيء عليها لأنهم قتلوا.

ظَهْرِ الحَرَّة، فوجدوا هناك أهل دارٍ منهم يقرب من خمسين أو ستين بيتاً يقال لهم بنو هلال بن قَدَم، فأتاهم فقال :أين أنتم عن الصَّيْد الذي على ماء كذا وكذا، إن الأرْوَى به مع الحُمُرِ وسائرِ الصَّيْد؟ فأقبلوا معه حتى إذا اقترب من الماء قال: مكانَكُم حتى أَنْفُضَ لكم الماء أن يكون حَدَثَ به بعدي أحدٌ، وخرج يرتجز وذكر الأصمعي أن بني صاهلة بعثته طليعةً لهم فتقدَّمهم وهو يرتجز فقال:

يا رَجُلاً ما بَعَثُوا مثلَ الزُّلَمْ

يَسْرِي على رُبْدِ الأفاعِي في الظُّلَمْ(١)

ثم نادَى منادي بني سُلَيْم فقال :رِدُوا، فليس على الماء أحدٌ، فوردوا الماء وهم قريبٌ من مئة رجلٍ، وفوجئوا بالقوم عادين عليهم من جوانب الوادي، فقتلوا بني سُلَيْم وأخذوا أسلابهم، وأخذوا العائذَيْن عائذاً ومُعَوِّذاً وهما سيّدا بني سُلَيْم فباعوا أحدَهُما بمكةَ،وقتلوا الآخر. فقالت بنو سُلَيْم للعجلان بن خُلَيْدَة: غَرَرْتَنَا بقومك، والله لَنَحْرِصَنَّ على قتلك. فقال في ذلك العجلان بن خُلَيْدَةَ:

جمعتُ لرَهْطِ العائذَيْنِ سَرِيَّةً ... كما جمعَ المغمورُ أَشْفِيَةَ الصَّدْرِ

فأوفَتْ قُرَيْمٌ صَاعَها إذْ أَمَرْتُهُمْ ... بأمْرِهِم وَضلَّ في عائذٍ أَمْرِي

فإن تَشْكُروا لي تشكروا لي نِعْمَةً ... وإنْ تكفُروا فلا أُكَلِّفُكُمْ شُكْرِي

فمن لامَني فيها فإنِّي فَعَلْتُها ... ولم آتِها من ذي جَنَانٍ وذي سِتْرِ

فذَلَّ بها قومٌ وبَيَّضْتُ أَوْجُهاً ... تَحَوَّلْنَ من طولِ الكَلالَةِ والوِتْرِ(٢)

فنرى أن العَجْلانَ يلومهم لأنهم اعتقوا أحدهما من القتل حيث باعوه ولم يقتلوه فكان من رأيه قتل السيِّدَيْن.

ومن الأيام المشهورة كذلك بين هذيل وسُلَيْم يوم "سُمْيٍ" وخلاصته أن بني صاهلة خرجوا لغزو بني سُلَيْم بنِ منصورٍ، وهو بِرُهاط وسُمْيٍ، فوجدوهم بِسُمْيٍ

---

(١) الزُّلَم: القِدْحُ، الربدة: لون الرماد والمعنى أنه دليل جرئ.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٧٦٥ المغمور: الذي يشتكي صدرَهُ، أشفية: جمع شفاء وهو الدواء، أوفت صاعها: مثل، يقول: قتلت من كان ينبغي له ذلك، فأوفَتْ ما فُعِلَ بها، الجنان: الخفيةُ أو السِّتْرُ، تحولن: تغيرن وكَلَلْن من الغزو.

خمسين بيتاً، وخرج رجالٌ من بني سُلَيْم يقعُدُون لحُمُر بأسفلِ الوادي الذي هم به، فبيَّتَهم بنو صاهلة وأباحوا ديارَهُم،ثم سمعَ رماةُ الحُمُرِ من بني سُلَيْم أَنيساً فقالوا: كأنَّ الدار قد وقع فيها عَدُوٌّ! ثم قال بعضُهم لبعض: هو حِسُّ الحُمُر واردَةً فغرَّهم ذلك حتى انتبهوا قُبَيْلَ الصُّبح وقد خَرجَتْ بنو صاهلة بالسَّبْيِ من الليلِ فأدركهم الطلبُ من بني سُلَيْم ومعهم سيدهم كُلَيْبُ بن عَهْمَةَ ، فَجَدَّ كليبُ بن عَهْمَة في طلبهم وكانوا قد فرغوا من أولِ الليل وهربوا، ثم أدركهم كليبٌ وهو يرتجز:

أنا كُلَيْبٌ ومَعِي مِجَنِّي
بازِلُ عامَيْنِ قديمُ السِّنِّ
أَضْرِبُ رأسِ البطلِ المُعْتَنِّ
حتى يَميطَ في الخلاءِ عَنِّي

وحَدَثَ أن قعدَ له رجلٌ من هُذَيْل فرماه بسهم فقتله، فرجعَ من كان معه من بني سُلَيْم، ويروى أن شاعرَ بني صاهلة عبدُ بن حبيب قال في ذلك:

ألا أَبْلِغْ يمانينا بأَنَّا قَتَلْنا أمسِ رَجْلَ بني حَبيبِ
قتلناهُمْ بِقَتْلَى أهل عَاصٍ وقَتْلَى مِنْهُمُ مُرْدٍ وَشيبِ
فأَنْبَحْنا الكلابَ فَوَرَّكَتْنا خِلالَ الدارِ داميةَ العُجُوبِ
تركْنَا ضُبْعَ سُمْيَ إذا استباءَتْ كأنَّ عَجيجَهُنَّ عَجيجُ نِيبِ (١)

ويقال إن راثية بني حبيب بن ظَفَر من سُلَيم، قالت ترثي قتلى قومها في ذلك اليوم:

ألآ يا عَيْنُ بَكِّي واسْتَجِمِّي شُؤونَ الرَّأْسِ رَجْلَ بني حَبيبِ
مَطاعيمٌ إذا قَحطَتْ جُمادَى ومَسَّاحُو المَغائِظِ بالجُنُوبِ (٢)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٧٦٩ يمانينا: مَن كانَ من هُذَيْل في شقِّ اليمن، رَجْل: رَجَّالة، عاصٌ وعُوَيْصٌ: واديان عظيمان بين مكة والمدينة، وَرَّكَتْنَا: خَلَّفَتْنا في جانب، العَجْبُ: أصل الذنب، خِلالَ الدار: بين الدار -يريد أصحابها-، سُمْيُ: بلدة، استباءت: يبوء بعضها إلى بعض، أيَ: ترجع بالليل، نِيبٌ: إبلٌ مَسَانٌّ.

(٢) المرجع نفسه جـ ٢ ص٧٧٣، استجمي شؤون الرأس: خذي بجمتها فأبكي به، الرجل: الرجالة؛ مساحوا المغائط: أي يعركونه بجنوبهم فهم حلماء، فهي تصفهم بالحلم.

إلى غير ذلك من الأيام التي كانت بين هُذَيْل وسُلَيْم كيوم ثَنيَّة العقيق الذي هُزِمَتْ فيه سُلَيْم شرَّ هزيمةٍ[1] والمهم أن نلاحظ أن الأيام كانت دائمةً بينهما إلى أن أَنعمَ الله بالإسلام.

وكان لهُذَيْلٍ أيام مع قبيلة خُزاعة، ولعلَّ من أشهر الأيام بينهما يوم "لَفْتٍ" ويوم "الرَّجيع" وسببُ ذلك هو طمعُ هُذَيْل في غزو جيرانها حُبّاً في السَّلب والنَّهب. وقد رُوي أنَّ بني سَهْم بن معاوية - من هُذَيْل - ورئيسهم مَعْقِل بن خُوَيْلد، قاموا بغزو خُزاعة، فأصابوا منهم داراً عظيمةً بلَفْت - وهي عقبةٌ بطريق مكة - فأخذوا نَعماً وسبياً كثيراً، ثم ذهبوا يسوقون السَّبْي والنَّعَمَ حتى وصلوا الرجيعَ وهم مطمئنون ثم تَغاوَتَ بنو كعب من خُزاعةَ، فخرجوا بجمعٍ عظيمٍ، حتى أدركوا مَعْقلاً وأصحابَه ببطن الرَّجيع قد أمنوا ووضعوا السلاحَ، وهم على ماء يَغتسلون، فعَدَتْ عليهم بنو كَعْبٍ وهم على تلك الحال مُغْتَرُّونَ، فقتلوا منهم رَجُلَيْن يقال لهم: العَمْران، ثم وثبوا على مَعْقِل وهو يَغْتَسِلُ،فَواثَبَهُم مَعْقِلٌ فقتلَ منهم ثلاثةَ إخوةٍ، بني أبي صُرَد، كلّهم أبطال يعانقه هذا ويضربه هذان، ثم يعانقُه هذا ويضربه هذان، حتى والى بينهُم جميعاً في مكان واحد، والقومُ يقتتلون سوى ذلك.

قال الراوي: فذلك يومُ يقولُ الخزاعيُّ: يا قوم، أَبت السيوفُ مَعْقلاً! وقد عانَقَهُ آخرُ فقال: اقْتُلوني ومَعْقلاً! ثم ارتَجَعَتْ خُزَاعةَ سَبْيَهُم، وقد أُصيبَ منهم ناسٌ منهم الثلاثةُ الذين قَتَلَهُم مَعْقِل وهم: أَنَسٌ وأُنَيْسٌ وخِذامٌ. وقال مَعْقِلُ بنُ خُوَيْلدٍ في ذلك اليوم.

ألآ هَلْ اتَي أَبَا صُـــرَدٍ مَكَرِّي ... على أَنَسٍ وصاحبِه خِذامِ
ولاءً عند جَنْبِهِمَا أُنَيْسٌ ... ولم أَجْزَعْ من الموتِ الزُّؤامِ
لَعَمْرُكَ ما خَشيتُ وقد بَلَغْنَا ... جِبالُ الجَوْز من بلدٍ تَهامي
نَزيعاً مُحْلِباً من أهلِ لَفْتٍ ... لِحَيٍّ بينَ أَثْلَةَ والنِّجَامِ[2]

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٨٥٠.

(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص٣٧٧. أنس وخذام: هما ابنا صُرَدٍ هذا، ولاءً، أي: موالاة، الزؤام: السريع الشديد، نزيعٌ: غريب، مُحْلِب: معين، أثلة: بلدة، النِّجام: وادٍ، لَفْت: عَقَبَةٌ بطريق مكة.

ويظهر أن الدائرةَ دارت على هُذَيْل في النهاية، إذ أَدْرَكَتْهُم خزاعةٌ وهو يَغْتَسلون فقتلوا منهم عدداً، ثم استردوا سَبْيَهُم وأَنْعامهم، ويروى أن بعض الخزاعيين قال يومئذ:

لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّني لَمَقْتُولْ ... فلا صريخَ اليومَ إلا المَصْقُولْ (١)

وهناك يوم "النِّجام" بين هُذَيل وخزاعة، إلا أن الرواة لم يحدثونا عن تفصيلاته إلا ما يرويه الجُمَحيُّ من أن مَعْقِل بن خُوَيْلد غزا خُزاعةَ في قومه بني سَهْم بن معاوية، وأنهم أَسَروا أمَّ عمرٍو امرأة خِذام الخُزاعيّ مع نساء من قومها عُريانةً وأنها قالت:

أساءَتْ هُذَيْلُ في السِّياقِ وأَفْحَشَتْ ... وأَفْرطَ في السَّوقْ القَبيحِ إسارُها

لعلَّ فتاةً منْهُمُ أَنْ يَسُوقَها ... فوارسُ منَّا وهْيَ بادٍ شَوارُهَا

فإن سَبَقَتْ عُلْيا هُذَيْلٍ بِذَحْلِها ... خُزاعةَ أو فَاتَتْ فكيفَ اعتذارُهَا

ويروى أن مَعْقِلَ بن خُويلد أجابَها بقوله:

أَرَى أُمَّ عمرٍ في السِّياق تَغَضَّبَتْ ... وهانَ علينا رَغْمُها وصَغارُهَا

وكمْ منْ فَتاةٍ قَبْلَها سُقْتُ عَنْوَةً ... مُنَعَّمَةٍ والزُّرْقُ بَادٍ حِرارُهَا

فإنْ يأتنا يا أُمَّ عَمْرٍو خُيولُكُمْ ... تُلاقِ لَنا حَرْباً شَديداً سُعارُهَا

وفِتْيانَ صِدْقٍ من هُذَيلٍ أَعِزَّةٍ ... مَساعيرَ حربٍ ليس يُخْشَى فرارُهَا (٢)

ويبدو أن هذيلاً هَزَمَتْ خُزاعةَ في هذا اليوم، لأنهم قاموا بسبي عدد من النساء، وهذا دليل على مقتل الرجال من أعدائهم، ثم إننا نرى مَعْقِلاً يتوعد أمَّ عمرٍو ويوضح لها أن خيول خُزاعة إن هي هَجَمَتْ هُذَيْلاً فإنها ستجد أبطالاً في هُذَيْل لا يفرون من القتال عند ملاقاة الأعداء.

على أنَّ هزيمةَ خُزاعَة أمام هُذَيْل تظهرُ في يوم آخر يَرْوِيه الجُمَحيُّ كذلك، ويتضح فيه مدى ما لحق خُزاعة من خسائر في الأرواح، فيروي أنه كان من خُزاعة رجلٌ يقال له مُجَمِّعٌ، واسمه عامر بن عُبَيْد، وكان سَيِّدَ قومه، ويقال: إنه سُمِّي مُجَمِّعاً، لأنه جمع

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ١ ص٣٨١، ويروى: «لقد عَلِمْتُ اليومَ أَنِّي مَقْتُولْ».

(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص٣٩٦ عنوة: قسراً، الزرق: جبال، حِرار: جمع حَرَّةٍ.

خزاعةَ من أفناء القبائل من بطون بَني كِنانةَ ، وأنه جَمَعَهم على حِلف بني مُدْلِجٍ، ثم خرجَ بهم هو وابنُ أخٍ له في غَزاةٍ عظيمةٍ حتى صَبَّحوا داراً من بني سَهْم بن معاوية، وداراً من بني سَعْد بن بكر، وحدَّث أن قُتِلَ عامرُ بن عُبَيْد في تلك الغزوة فقام ابن أخيه يرتجز:

إنِّي لعَمْرُ طَيْرِكَ الكُنُوسِ
وأمْرِكَ المُلَجْلَجِ الرَّمِيسِ
لأَرْفَعَنْ ذكرَ بَني ضَبِيْسِ
بَضَرْبَةٍ أو طَعْنَةٍ خَلُوسِ
نَفَّاحَةٍ كذَنَبِ الشَّمُوسِ(١)

ثم قُتِلَ ابنُ أخي عامر بن عُبَيْد، ويروى أن راثية عامر بن عُبَيْد وهي جَنُوبُ بنت الحَزْن بن مُرَّة قالت:

إلا يا عَيْنِ ما جُودي بِهَمْرٍ ... على قَتْلَى بَني كعبِ بنِ عَمْرِو
أصابَتْهُمْ قبائلُ من هُذَيْلٍ ... وآدَتْها بنو سَعْدِ بن بَكْرِ(٢)

وهنا يتضح ما أصاب خزاعةَ في هذا اليوم، ويقال: إن رجلاً من بني سَعْد بن بكرٍ يقال له: ابنُ جَاعَ قَمْلُهُ أُخِذَ وقد كان يصطاد النسورَ على جيفةِ عامر بن عُبَيْد.

ويَرْوِى الجُمَحيُّ أنَّ بني سهْم بن معاوية كانوا قد قَتلُوا منْ بني حَبْتَر في أولئك الأيامِ أربعين أو خمسين رجلاً، وأنّ مَعْقل بن خويلد بن وائلة بن مُطْحِل قد قتل من خُزاعَة قبل ذلك عَشرة رَهْطٍ، منهم المُحْتَطِبُ وعامر بن أَقْرَم،وقال عبدُ مناف بن رِبْعٍ الهذلي يذكر ذلك.

إنَّي أُصَادفُ مثلَ يومِ بُدَالَةٍ ... ولقاءُ مِثْلِ غداةِ أمسِ بَعيدُ
شَدَّ الرجالُ ذَوو الحديدِ فَأَفْلَحُوا ... إن المُحاوِلَ للعَلاءِ شَديدُ(٣)

---

(١) الكنوس: التي تكنِسُ في مواضعها، الرميس: المدفون، بنو ضبيس: من بني سَهْم من هُذَيْل.

(٢) آدتها: أعانتها.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٨٦٣ المحاولة: الالتماس.

وقد كان لهُذَيْلٍ أيام مع قبيلة هَوازن، ومن أشهر الأيام بينهما يومُ "الَبْوباة" والحقّ أن هُوازن هي التي بدأت بالعدوان، إذ إنها أغارت على هُذَيْل طلباً للسَّلب والنَّهب،ويروى أنّ بني كاهل من هُذَيْل نزلوا بظاهرِ البَوْباة، وذلك إثْرَ غيثٍ كان هناك،ونَزَلَ معهم بنو جُرَيب بن سعْد بن هُذَيْل.

فجمعت لهم هَوازنُ ، وكان رئيسُهم يومئذ مالكُ بن عَوْفٍ النَّصْرِيُّ وكان قد بلغه غِرَّتُهم وقلَّة عَدَدِهم، فأقبلوا في جَمْعٍ عظيمٍ حتى أوقعوا بهم واستاقوهم وكلَّ ما يملكون من المال.

وجاء الصريخُ إلى بني مازن بن معاوية وقِرْد بن معاوية، فخرجوا حتى إذا رأَوْهم يسوقون النساءَ والنَّعَمَ، افترقوا لهم فَريقين:أما بنو مازن فتقدّموهم وقعدوا لهم على شرف المَنْقَبَة، بينما تأخرت بنو قِرْدٍ لأُخْراهم. ولما اقتربت هَوازن من المَنْقَبَة اكْتَنَفَتْهم بنو مازنٍ من أمامهم، وأَتَتْهُمْ بنو قِرْدٍ من ورائهم، فلم يُفْلِتْ منهم أحدٌ إلا مالكُ بن عوف الذي هربَ شدّاً على رِجْلَيْه، ويقال: إن ثَنِيَّة المَنْقَبَة كانت تسيلُ بدمائهم، ويروى أن أبا ذُؤَيبٍ الهذلي كان يَضربُ في القوم ويرتجز:

أَدْرَكَ أَرْبَابُ النَّعَمْ ... وحَمِيَ الضَّرْبُ وَجَمْ

بِكُلِّ مَلْحُوبٍ أَشَمْ ... مُذَلَّقٍ مِثْلُ الزُّلَمْ

رُدُّوا السَّبِيَّ والنَّعَمْ ... يا حَبَّذا ريحٌ بِدَمْ (١)

وقال أبو شهاب المازنيُّ في هذا اليوم قصيدة مطلعها:

ألا يا عَناءَ القلب من أمِّ عامرٍ ... وَدِينَتِهِ مِن حُبِّ مَنْ لا يُجَاوِرُ

وقال مَعْقِل بن خويلدٍ في هذا اليوم:

فأمّا ابنُ عَوفٍ فاسْتَمَرَّ بِرَمْيَةٍ ... لها عَاندٌ بَيْنَ اللَّهَا واللَّهَازِمِ

وقال مالكُ بن عوف النَّصْرِيّ حين رجع إلى قومه مغتاظاً:

إِنِّي زَعِيمٌ أَنْ تُقَادَ جِيادُنَا ... نِقابَ الرَّجِيعِ في السَّرِيحِ المُسَيَّرِ

---

(١) جم: كثر، أشم: طويل، ملحوب: قليل اللحم، مُذَلَّق: ممشوق.

فأجابه مالكُ بُن خالدٍ بقصيدة منها:

أَمالِ بْنَ عَوْفٍ إِنَّما الغَزْوُ بَيْنَنَا ثلاثُ ليالٍ غَيْرُ مَغْزاةِ أَشْهُرِ (١)

ثم خرج مالكُ بنُ عوفٍ النصريُّ بقومه هَوازن في العام التالي حتى غزا هُذَيْلاً بالرَّجيعِ، فَهُزِم هو وقومه شَرَّ هزيمةٍ ،وقُتِلَ أخوه رَبيعةُ، وعُقِرت فرسُ مالك بن عوف، ويقال: إنه هربَ شَدّاً على رِجْلَيْه،ثم لم يكن بينهم قتال حتى أنعم الله تعالى بالإسلام(٢).

وكانت أيام بين هُذَيْل وكنانَة ، ولَعلّ من أشهر الأيام بينهما يوم الحقَاب" وهو يوم نَعْمان،فيروى أن ثلاثين فارساً من بني مُدْلِجِ بنُ مُرَّة بن عبد مَناة بن كنانة قاموا بغزو هُذَيْل في موضع نَعْمان، فوجدوا داراً من بني قُرَيْم بن صاهلة بن الحارث فأغاروا عليهم،فاسْتشْرَفَتهُم بنو قُرَيم بالنبال، فقتلوهم إلاّ رجلاً واحداً هرب على فرسه، ويقال إنه كان في دُبْرِ سَرْجه أكثرُ من عشرين سهماً أو ثلاثين حين كانوا يطرُدونه ورجع إلى قومه،فغضب بنو مُدْلَج، وجمعوا عدَّتهم لقتالهم، فلما أحسَّتْ بذلك بنو قُرَيْمٍ رجعوا إلى قومهم، وقال لهم نوفلُ بن معاوية بن صخر بن يَعْمَر بن نُفاثه بن عديٍّ بن الدِّيل من كنانة: أنا لكم من بني مُدْلج جارٌ! فقالت بنو قُرَيْم :لا نطمئنُّ إلى هذا، إنما بنو مُدْلج قومُه،وإن القومَ غازوكم ! فخرجتْ بنو مُدْلجٍ بالخيل حتى قابلوا نَعمانَ، فلم يَجدوا هناك أحداً،وغَضِبوا من قولِ نوفلِ بنِ معاوية، فقال في ذلك سُراقةُ بن جُعْشُمٍ من كنانة:

تَبَغَّيْنَ الحِقابَ وبَطْنَ بُرْمٍ وقُنِّعَ في عَجاجَتِهِنَّ صارُ

فأُبْنَ كأَنَّهُنَّ قِداحُ نَبْعٍ وقد رَثَمَتْ دَوابِرَهَا البِصارُ

ولَوْ أَدْرَكْنَ دارَ بَني قُرَيْمٍ وجارَهُمُ إذاً وَرِبَ الجِوارُ (٣)

على أنَّ بَني كنانةَ لم يكن بينهم وبين هُذَيْل أيامٌ كثيرةٌ، ويظهر أنهم كانوا لا يحبون الحربَ مع هُذَيْلٍ كما يبدو ذلك واضحاً من يومٍ كان بينهما يُسَمَّى يوم "غَمْرِ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٦٩٣ - ٦٩٩.

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص٦٩٩.

(٣) المرجع نفسه جـ ٢ ص٨٥١. الحقاب: موضع، قُنِّعَ في عَجاجَتهن، أي: استدار عليه العَجَاج، صارٌ: شِعْبٌ، البِصارُ: الحجارة واحدتها بَصْرَة، وَرِبَ يَوْرَبُ: فَسَدَ.

ذي كَنْدَةَ" وهو يومُ المَسَدِّ، وهناك مقدمة لا بُدَّ منها لفَهْمِ الظروف التي تَسبَّبَ عنها ذلك اليوم، وقد رَوى الجُمَحِيُّ أن عُوَيْمِر بن عامر بن سَدُوس الهُذَلِيَّ كان قد حجَّ،وبينما هو بمِنًى إذ لَقِيَ رجلاً من بني المُصطَلِقِ يدعى أُدَيرد، فقال له أُدَيْرد: مَن أنت؟ قال: أنا رجلٌ من بني سُلَيم بن منصور، وقال له: أَحَسَنٌ سَيْفُكَ هذا ؟ أرني أنظرْ إليه! فناولَهُ سيفَه، فسَلَّه، وقال: ما هذا السيفُ لك! هذا والله سيف عُوَيْمِر بن عامر بن سَدوس قد رأَيْتُه معه! فقال له أُدَيْرِدُ: هذا سيفي ورثتُه من أبي! فاختصما حتى حكَّما في ذلك رجلاً مشَيا إليه معاً فتكلم أُدَيْرِدُ فقال: هذا رجل من سُلَيْم قال لي: أرِني أنظرُ إلى سيفك، فسَلَّه ونظرَ إليه وقال: هذا والله سيفٌ رأيتُه مع عُوَيْمِر بن عامر بن سَدُوس ! فقال الرجل: خدعَكَ ولم يَكْذِبْكَ! ثم انتزعَ عويمرُ السيفَ فذهبَ به، فلبث ثلاثَ سنين أو أربعاً[1].

وحدث أن خرجَ بنو كنانة يريدون أهلَ نجد، وخرج معهم أُدَيْرِدُ حتى بَطَنُوا النخلةَ الشآميةَ، فلم يجدوا هناك إلا عُوَيْمِرَ بن عامرٍ صاحبَ أُدَيْرِدَ الذي كان أخذَ منه السيفَ، وجده هناك قاعداً، فما كان من أُدَيْرِدَ إلا أن تناوله بالسيف وخَذَّعه[2].

فاستنكرت بنو كنانة هذا الفعل وقالوا له: بئس والله ما صنعتَ، ألا ترى أنَّا ظهْرَيْ هُذَيْلٍ، ولا طريقَ لنا إلا بين أظهُرِهم؟ ثم قدم أبوه عامرُ بن سدوسٍ الهذليُ يَسعَى، وقال: ما هذا العملُ يا بني كنانةَ؟ قالوا : عَملُ رجلٍ من بني المُصْطَلِقِ ، والله ما أَحْبَبْنا ذلك، ونحن مُعْطوكَ حُكْمَكَ في ابنكَ إن ماتَ، ثم طلب منهم أن يخرجَ معهم للغزو، قائلاً: بل أَخْرُج معكم فأَغزُوا، فإن كانت غنيمةٌ، أصبتُها معكم ، وأَسْتَدْبِرُ ابني ـ أي أنتظر أيموت أم يعيش ـ قالوا: فافعل حتى تَرجع، ولا بأس بهذا ، ثم طلب أن يذهَب إلى أهله ليأخذَ سلاحَه، ويرجع إليهم حتى يخرجَ معهم للغَزْوِ.

ولما ذهب إلى أهله قال لَبَنيه: إذا آنستم هؤلاء القومَ قد انحرفوا من نَجْدٍ فإن يَهْلكْ صاحبُكم فَمُرُوا رجلاً، فليبرُزْ لي بجَبَلِ كذا وكذا، وليَقُلْ: لا بأسٍ به، وإن سلِمَ فليقُلْ: هَلَك الرجلُ،خُذِ الدِّيَةَ، واجمعُوا قَومَكُم فسُدُّوا المَسَدَّ واقْعُدوا لهم بالعِيرَيْنِ.

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٨٦٧.

(٢) خَذَّعه بالسيف: إذا حَزَّز في اللحم فقطعه من غير بينونة.

فلما رجعوا من الغزو وبلغ حيث واعد الرجلَ، برز الرجلُ، فنادى عامرٌ : يا صاحبَ الجبلِ ، هل لك علم بعُوَيمر بن عامر بن سدوس ما فعلَ؟ فصاح الرجل: بَرَأَ، فقال: الحمدُ لله، هذا الذي كنا نَبْغِي، فاقْسِمُوا لي نَصيبي من النَّهْب فقسموا له نصيبَه،وذهب القومُ من بني كِنانة حتى وَجَدوا بني خُناعةَ من هُذَيْل قد سَدُّوا المَسَدَّ، وفُوجئوا بالحجارة والنبال تتساقط عليهم حتى هَلَكوا، ولم يبقَ منهم إلا المُخَبِّرُ، فقال في ذلك شاعر بني خُناعة:

هُمُ ضربوا يومَ ذي كِنْدَةٍ ... مُقَدِّمَةَ الجيشِ ضَرْباً رَعيلاً
بحَدِّ السيوفِ وذَادُوهُمُ ... لَدَى القُتُراتِ وسَدُّوا السَّبيلاَ
أخونا الجَوادُ أبو مالكٍ ... نَمَى من خُناعةَ عِرْقاً أصيلاَ (١)

فلعله ظهر واضحاً من هذا اليوم أن بني كنانة كانوا لا يحبون لقاءَ هُذَيْل والحرب معها، ولكن الظروف هي التي دفعَتْهم جبراً إلى هذا اليوم الذي هلكوا فيه، وهُزِموا شرَّ هزيمةٍ.

وكان لهُذَيْل غارات على قبيلة جُهَيْنَةَ ولهم معها أيام أشهرها يوم «الحُلَيْت» وفيه دارت الدائرة على جُهَيْنَةَ، وكان سببه أنّ هُذَيْلاً تريد أن تَنْتَصف لأحد قَتْلاها وتأخذ بثأرها، ويروى أن أبا ضَبٍّ أخا بني لِحْيان الهُذَلي، كان لا يُقْتَل من هُذَيْل قتيلٌ إلا قَتَلَ قاتلَه، وحدث أن جاءت امراة من بني سَهْم بن معاوية من هُذَيْل، قُتِل أخٌ لها يقال له عِصْمَةُ الأضياف، وكان الذي قتله أَسْلَمُ من بني جُهَيْنَةَ، فذكرتْ ذلك لأبي ضَبٍّ.

فخرج أبو ضبٍّ وابنُ أختٍ له يقال له الرَّكَابُ حتى وجدَ القومَ في دُبُر الحُلَيْت ، فبيَّتَهُم أبو ضَبٍّ وصاحبُه، وأصابا أهلَ تلك الدار، وقتلا مسعوداً سيِّدَهم، ثم انصرفا ورجعا إلى قومهما، فخرج القومُ في آثارهما حين أصبحوا، ويقال: إنهم رأوا الأفاعيَ صَرْعَى تحت أقدامهما، فقال أبو ضبٍّ في ذلك اليوم:

هلاَّ عَلِمْتَ أبا إياسٍ مَشْهَدي ... أيامَ أَنتَ إلى المَوالي تَصْخَدُ
وأَخَذْتُ بَزِّي فاتَّبَعْتُ عَدُوَّكُمْ ... والقومُ دُونَهُمُ الحُلَيْتُ فأَبْعَدُ
حتى طَرَقْتُ بَنِي نُفاثَةَ مَوْهِناً ... واللهُ أَبْلى والعَواقِبُ شُهَّدُ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٨٦٩ ذي كندة: يريد غمر ذي كندة ورعيل: مقطَّع.

فتركتُ مَسْعوداً على أحشائه حَرَّى يعاندُها نَجيعٌ أَسْوَدُ

وَضَرَبْتُ مَفْرِقَهُ ومِنّي عادَةٌ ضَرْبُ المفارِقِ والفرائصُ تُرْعَدُ (١)

وكان لهُذَيْل كذلك غاراتٌ على الأزد ، ولهم معهم أيام لعل من أشهرها يومُ "حَلْيَةَ" ويُروَى أن نفراً من بَني صاهلة من هُذَيْل خرجوا للغزو يريدون حَيّاً من الأزْد بحَلْيَةَ،يقال لهم ثابرٌ، فلما وَصَلُوا إليهم، قتلَتْهُم ثابرٌ إلا رجلاً واحداً انفلتَ منهم، فبلغ ذلك بني صاهلَة وهم بنخلَةَ، فغضب سَلمَى بن المُقْعَد وحلف لا يَمسُّ رأسَه غسْلٌ ولا دُهْنٌ حتى يَقْتُلَ بهم ويَأخُذَ بثأرهم .

فغزاهم ببني صاهلةَ فوجدَهم بَحلْيَةَ، فصبَّحَهُم ، وأباحُوا دارَهم، وقال في ذلك سَلْمَى بنُ المقْعَد :

رجالُ بني زُبَيْدٍ غَيَّبَتْهُمْ جبالٌ أَمُولَ لا سُقِيَتْ أُمُولُ

وقال أيضاً :

إنا نَزَعْنَا من مجالس نَخْلَةٍ فَنُجيزُ من حُشُنٍ بياضَ أَلَمْلَمَا

لا نَبْتَغي إلا بكُلِّ مُهَنَّدٍ ذَكَرٍ يُتِرُّ إذا يُصيبُ المُعْظَمَا

لَمّا عَرَفْنَا أنَّهم أَثْآرُنَا قُلْنا وشمسِ لَنَخْضِبَنَّهُمُ دَما

نَرْمي ونَطْعُنُهُمْ على ما خَيَّلَتْ نَدْعَوا رياحاً وَسْطَهُمْ والتَّوْأَمَا (٢)

وقال رجلٌ من ثابرٍ ـ من الأَزْدِ ـ يقال له الحَشْرُ، قُتِلَ له ابنانِ في المعركة في ذلك اليوم :

فيا عَجَباً منكُمْ تَميمُ ودارُكُمْ بَعيدٌ بِجَنْبَيْ نَخْلَةٍ فالمَناقِبِ

غَزَوْتُم على أيْنٍ وبُعْدٍ وشُقَّةٍ فأوْفَيْتُمُ منّا جَزاءَ المُعاقِبِ

تناوَلَني عمرو بِسُرْبَةِ رَجْلَةٍ على كِبَرٍ منهُ وشَيْبِ الذَّوائِبِ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٧٠٣ الموالى : بنو العم، تَصْخَد : تصرخ وتصيح، الحليت : موضع، بَزُّه : سلاحُه، حَرّى : طعنةٌ شديدةٌ على صاحبها، نجيع : دم طري.

(٢) المرجع نفسه : جـ ٢ ص٧٩٦ نزعنا : جئنا، نُجيزُ : نَمُرُّ، أَلَمْلَم : موضع، يَتِرّ : يقطع، المُعْظَم : أغلَظَه مثل العُنُقِ والفَخِذ والسّاق، رياح وتوأم : رَجُلان .

تقـــول هُذَيْلُ لا غَـــزاوةَ عِندَهُ بَلَى غَـــزَواتٌ بَيْنَهُنَّ تَواثُبُ(١)

وهناك أيام أخرى كثيرة، خاضتها هُذَيْل مع غيرها من قبائل العرب، حيث لا مجال لذكرها هنا، ثم إن هناك أياماً كثيرةً عرض لها الشعراءُ في أشعارِهم، ولكنَّ الرواةَ لم يتحدثوا عن تفاصيلها.

ولم تقتصر الحروبُ والأيام التي خاضَتْها هُذَيْل على أن تكون بينها وبين غيرها من القبائل العربية، بل تَعَدَّتْ ذلك حتى كانت بين بطون هُذَيْل نفسها، فكان القتال بين العشيرة والعشيرة من هُذَيْل. والواقع أن هذا ليس غريباً، لأنَّ الخلافات قد تحدثُ بين بطونِ أيَّة قبيلةٍ مما يترتب عليه الصراع أحياناً، أضفْ إلى ذلكَ أنّ ظروفَ حياتهم كانت قاسية، وأن أكثرهم كان يعتمد على الرعي والتنقل،هذا إلى شيوع الغزو عندهم للسَّلْبِ والنَّهْب، وأعتقد أنَّ السَّلْبَ والنَّهْبَ لم يكن عاراً عندهم بل كان يعتبر مِن قبيل الشجاعة والفروسية للحصول على الرزق.

ومعروف أن هُذَيْلاً كانت عدة بطون كما سبق بيانه،وقد وقعت خلافاتٌ كثيرةٌ بين بطونها، ونَتَجَ عن بعضها صراعٌ أو أيام أحياناً، ثم إننا نلاحظ أن الأيامَ التي كانت تقع بين عشائرِ هُذَيْلٍ كانت ترجع غالباً إلى حماية الجارِ والثأر له كيوم العَرْجِ، أو إلى سوء فهم يقع بينهم ثم يتَّسِع الخلافُ حتى تكون حرباً، وذلك كيوم العَوْصَاء مثلاً.

أما يوم "العَرْج" فكان بسبب الوفاء للجوار. رُوي أن أبا جُنْدُب الهُذلِيَّ كان مريضاً، وكان له جارٌ من خُزاعَة يقال له " حاطِمُ بنُ هَاجِر بن عبد مناف بن ضاطر" وحدَثَ أن وَقَعْت به بنو لحْيان فقَتَلوه هو وامرأته واستاقوا مالَه،فلما شُفِي أبو جُنْدُب من مرضه خرجَ حتى قدمَ مكَّةَ ، ثم مشى حتى اسْتَلَم الرُّكْنَ ثم طاف بالكعبة،فعرَفَ مَنْ رآه مِن الناس أنه يريدُ شَرّاً، ثم صاح وقال:

إنِّي امْـــرُؤٌ أَبْكِي على جَـــارِيَّهْ أَبْكِي على الكَعْـبِيِّ والكَعْـبِيَّـهْ
ولو هَلَكْتُ بَكَيـــا عَلَيَّـــهْ كـانا مكانَ الثَّـوْبِ مِن حَـقْـوِيَّهْ(٢)

---

(١) المرجع نفسه جـ ٢ ص٧٩٩ الأين: الإعياء، وقوله فأوفيتم: يدعو عليهم بأن يجزوا جزاء المعاقب، الذي يعاقب، سربة: جماعة من الرجال، وعمرو: هو عمرو بن الحارث بن تميم، غزاوة: من الغزو.

(٢) المرجع نفسه: جـ ١ ص٣٤٩ قوله: «كانا مكان الثوب من حَقْوِيَّهْ» يريد كانا في موضع المَعَاذ، أي كانا مكانَ مَن أَجَرْتُ، وقال بعضهم: هو مَثَل يُضْرَبُ في الرجلِ يعوذ بالرجلِ ويَتَحَرَّمُ به، فيقول: هو بمنزلة مَن عاذ بِحَقْوَيَّ، وهذا معنى قولهم مَعْقِدُ الإزارِ.

فهو يقول:لو هلكتُ في جوارهما لبكيا عليَّ ، وطلبا بثأري لأنَّهما كريمان، فلما خرج من طوافه،وقضى حاجتَه من مكَّةَ وقضى نسكَه، خرَج في الخلَعاء من بكر وخُزاعَة فاستجاشهم على بَني لحْيان، فخرجوا معه وصبَّحوا بَني لحْيان، فقتلَ منهم قَتْلَى وسبى نساءً من نسائهم وذَراريهم .وقد قالَ أبو جُنْدُبٍ في ذلك اليوم شعراً كثيراً ومما قاله.

لقد أَمْسَتْ بنو لِحْيانَ مني ... بحمد الله في خِزْيٍ مُبينِ
جَزَيْتُهُمُ بما أَخَذوا تِلادي ... بَني لِحْيانَ كَلاَّ فَاحْرُبُوني
تَخِذْتُ غُرَانَ إِثْرَهُمُ دَليلاً ... وَفرُّوا في الحِجاز لِيُعْجِزُوني
وقد عَصَّبْتُ أَهْلَ العَرْجِ منْهُمْ ... بأهلِ صُوائقٍ إِذْ عَصَّبُوني
تركْتُهُمُ على الرُّكُباتِ صُعْراً ... يُشِيبُون الذَوائِبَ بالأنينِ (١)

فنرى أنَّ هذا العملَ الذي قامَ به أبو جُنْدُب كان ثورةً على ما أصاب جارَه من القتلِ ظلماً وعُدْواناً فصمَّم على أن يثأرَ له ولو من قرابته بني لِحُيان،فكان يرى أن سكوتَه على ذلك لا يتناسبُ مع وفاء الجوارِ والإخلاص إليه.

ومن تلك الأيام يوم "الأَحَثِّ" وقد روي أن بني لِحْيان كان لهم جارٌ، فقدم رجلٌ من بني خَزَيْمة بن صاهلة بن كاهل فأخذه وباعَه،فغضبَ من ذلك بنو لحْيان،وقال سيِّدُهم أبو قلابة: انطَلِقوا نُكلِّم بَني عَمِّنا في جارنا الذي أخذوه،ونحن لعمرُ اللهِ نَخْشَى جَهْلَهُم.

فخرجوا حتى قَدموا لبني خُزَيْمة وسيِّدُهم وَبَرَةُ بنُ ربيعةَ، فنادَوْهم من بعيد ولم يُقْدموا لهم،وقالوا:يا بني خُزَيْمَة، رُدُّوا علينا جارَنا،فرفضَ بنو خزيمةَ وقالوا: لا نفعلُ ولا نُعْمَةَ العَيْنِ، فتوعَّدَهُم بنو لحْيان. وحدث أن رَمَى غلامٌ من بني خُزَيْمة نحو بني لحْيان، فقام رجل من بني لِحْيان فَرَمى بسهم لم يخطئْ قَلْبَ وَبَرَةَ سيِّدهم فقتله، وتصارخَ النَّاسُ عمرٌو وكاهلٌ من كلِّ أَوْبٍ، فأدركوهم بصَعيد الأحَثِّ فأخذوا يقتلونهم.

---

(١) المرجع نفسه: جـ ١ ص٣٥٤ كلاَّ فاحْربوني: يهزأ بهم، غُرانُ: وادٍ، يُعْجِزوني: يفوتوني ويغلبوني. تَخِذْتُ: اتخذتُ وهي لغةُ هُذَيْل، عَصَّبْتُهم: صنعت بهم ما صنعوا بي من الشرّ، ويقال: إن المعنى حرمتهم وأخذت أموالهم، العَرْج: مكان، صُعْراً: مائلين.

ثم أدركَ رجلٌ من حلفاءِ بني كاهلٍ يقال له "عَمَّار" أدرك أبا قلابَة اللّحْيانيَّ فقال له: اسْتَأْسِرْ يا أبا قلابة ، فأنا خَيْرٌ من أَخذَك، وكان أبو قلابةَ قد ثَقُلَ وضَعُفَ وهو في أُخْرى القوم "فقال أبو قلابة" انكشفْ عني لا أبا لك، فإنَّ وراءك رجالاً خيراً منك، وأسرع أبو قلابَةَ، ثم أدركه الثانيةَ فقال :اسْتَسْلِمْ يا أبا قلابة، فما لي بُدّ من أَخْذك، قال: فَادْنُ مِنِّي، فدَنا ، فَقَنَّعَهُ أبو قلابة بالسيف فقتله. ثم أدركهم بنو الحارث بن تميم فأخذوا يقتلونهم حتى غَيَّبَهُم الليلُ منهم بِذي مُراخٍ ـ وهو وادٍ من بطن كَساب ـ وقد أكثروا فيهم القتلَ.

فانتقلت بنو لحْيان من ذلك اليوم إلى غُرَّان وفَيْدَةَ،وكانوا قبلَ ذلك أهل الهُزُوم وَرَخْمَة وألْبان وعِرْقٍ وكانت لهم مياه كَسَاب كما ذكر السُّكَّرِيُّ[1]. وقال أبو قلابة اللِّحْيانيُّ في ذلك اليوم:

يا دارُ أَعْرِفُهَا وَحْشاً منازِلُهُا ... بَيْنِ القَوائِمِ من رَهْطٍ فأَلْبَانِ

فَدِمْنَةٍ بزُخَيَّاتِ الأَحَثِّ إلى ... ضَوْجَى دُفَاقٍ كَسَحْقِ المَلْبسِ الفانِي

ما إن رأيتُ وصَرْفُ الدَّهرِ ذو عَجَبٍ ... كاليومِ هِزَّةَ أَجْمالٍ بأَظْعَانِ[2]

فيذكر في قصيدته بعضَ منازل بني لحْيان، ويعرض لَعمّارٍ الذي دَعاه لقتْله وطلب منه أن يَسْتأْسِرَ وأن يَسْتَسْلِمْ، وفي آخر القصيدة يتحسَّر ويتحزن على ما أصابه وأصاب قومه ولعله يستسلم للقدر فيقول:

لا تَأْمَنَنَّ ولو أصْبَحْتَ في حَرَمٍ ... إن المنايا بِجَنْبَيْ كُلِّ إنسانِ

ولا تهابَنَّ إنْ يَمَّمْتَ مَهْلِكَةً ... إنَّ المُزَحْزَحَ عنه يَوْمُهُ دانِي

ولا تقولَنْ لشيءٍ سوفَ أفعلُهُ ... حتى تبيَّنَ ما يَمْني لك المَانِي[3]

ومما وقع بين بطون هُذَيْل ما رُوي من أنَّه تحاربَتْ بنو لحْيان وبنو خُناعةَ، فكان بعضُهم يغزو بعضاً، فإذا أصابت بنو لِحْيان من خُناعةَ أحداً باعُوه، وإذا أصابتْ بنو

---

(١) المرجع نفسه جـ ٢ ص٧٠٩.

(٢) القوائم: جبال منتصبة، وَحْش: ليس بها أحدٌ، دُفاق: وادٍ، سَحْقٌ: خَلَقٌ، المَلْبَس: ثوب لُبِسَ وَكُدَّ.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ ٢ ص٧١٠ حَرَم: مَنَعَة، المُزَحْزَحُ عنه: المُباعَدُ عنه، الماني: القادر، الله جلَّ وعزَّ، يَمْني: يَقْدِرُ ويَقضي.

خُناعة من بني لِحْيان أحداً قَتَلوه. وحَدَثَ أن أخذتْ بنو خُناعة ابْنَي عُجْرَةَ عَمْراً ومُؤَمَّلاً، فأسروهما، وأرادوا قَتْلَهُما، فخرج مَعْقِل بن خُوَيْلد في نفرٍ من أشراف قومه بني سَهْم بن معاوية ـ وكان سيّداً مُطاعاً ـ فأتى بني خُناعة فلم يزل يكلِّمُهم ويرجوهم حتى أطلقوهما وقال: يا بني لِحْيان أثيبوا إخوانَكُم وأحسِنُوا فإنَّهم قد أطلقوا لكم أخوَيكم.

وبينما كان مَعْقِل على ذلك يَلْتَمس لبني خُناعةَ الثوابَ،قيلَ له: إن بني لِحْيان يريدون أن يَقْتُلوكَ ومَن معكَ من قومكَ من بني خُناعَة الذين شَفَّعُوك، وأنْ يَغْدِروا بك فاحذرْهُمْ، فقال في ذلك مَعْقِل بن خُويلد:

أَبلِغْ أبا عمرٍو وَعَمْراً كِلَيْهِما ... وَجُلَّ بني دُهْمانَ عنّي المَراسِلا

تُدافِعُ قوماً مُغْضَبِينَ عَلَيْكُمُ ... فَعَلْتُم بها خَبْلاً من الشَّرِّ خابِلا

دَعَوْتُ بني سَهْمٍ فَلَمْ يتلبَّثُوا ... سَراتُهُمُ تُلْقِي عليْكَ الكَلاكِلا

بنو عَمِّنا في كلِّ يومٍ كَريهَةٍ ... إذا قَرَّبَ الأنسابَ عَمْراً وكاهِلا

إذا أَقْسَموا أقسمْتُ أَنْفَكُّ مِنْهُمُ ... ولا مِنْهُما حتى نَفُكَّ السَّلاسِلا (١)

وأما يوم "العَوْصَاء" فكان بين بَني شَمْخٍ وبين بني قُرَيْم بن صاهلة، وكان بسبب ناقةٍ قُتِلَتْ بطريقِ الخطأ، فيقال: إن عمرَو بن قيس المخزوميَّ وهو أحدُ بني شَمْخٍ رَهْطِ عبدِ الله بن مسعود ـ كان له ناقةٌ، وكانت هاملةً ترعى من ميهَى ـ اسم ماء ـ يقال لها العَوْصاء،وكان رجلٌ من بني قُرَيْمٍ اسمه ساعِدَة بن عَمْرو هو وأخوه عازِبَيْنِ في غنمٍ لهما، وبينما كان مُريحين غنمهما في ظُلْمَة، إذ سمعا خَشْفاً في صَريمةٍ مُلتَفَّةِ الشجر،فظنّا أنَّ هناك رجلاً يُريدُهما، فقام ساعدةُ فَرَمَى بسهم حيثُ سمعَ الحِسَّ فلم يسمعْ إلا رغوةَ بعيرٍ، فإذا هي ناقةُ عمرو بن قيس، فساءَهُ ذلك، وندم على ما فعل، فقد كان بنو شَمْخٍ يومئذ حلفاء لبني قُرَيْم بن صاهلة، ولما علم عَمْرُو بن قيس غضبَ وقال في ذلك:

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص٣٧٣ مراسل: جمع رسالة ومُرْسَلَة، يقال: خَبَل فُؤادَه إذا أفسدَه، ألقوا عليه الكلاكل: تعطفوا عليه بأنفسهم وتحدَّبوا. وفي البيت الأخير يقول: إذا أقسموا ألا يفعلوا أقسمت أنا ألا أنفك منهم ولا من أولئك الذين هم عمرٌو وكاهل، حتى تفك السلاسل عن الأسيرين ابني عُجْرة.

أَصابَك ليلةَ العَوْصاءِ عَمْداً بسهم اللَّيْلِ ساعدةُ بنُ عَمْرِو
فَلم تَقْتُلْ بها ثأراً ولكنْ لِمَوْلاكُمْ أخي ثِقَةٍ ونَصْرِ
أَجِنِّي كلَّما ذُكِرَتْ قُرَيْمٌ أَبِيتُ كأنَّني أُكْوَى بِجَمْرِ (١)

فأجابه ساعدةُ بن عَمْرو ببيتين على الوزن والقافية أنفسهما، وهجاه فيهما هجاءً لاذعاً قاسياً وأفحش له فيهما. ثم طار الهجاء بينهما حتى نال بني قُرَيْمٍ عامَّة، فغضب بنو قُرَيْمٍ وَرَدُّوهم إلى بني مخزوم - بعد أن كانوا حلفاء - وقال في ذلك سَلْمَى بن المُقْعَد:

ألا أَبلِغْ لديكَ بني زُبَيْدٍ فدونَكُمُ بَني شَمْخِ الضَّلالِ
أتونا يَبْتَغُونَ ولاءَ حِلْفٍ فألفَيْناهُمُ شَرَّ المَوالي

فرجعَ بنو شَمْخٍ إلى قومهم، وبينما كان عمرو بن قيس يُطْعِم لِقاحاً له بنَجْدٍ في جانب الرَّحَى، إذ وجَده قوم من بني زُلَيْفَةَ كانوا يطلبون وِتْراً في بني شَمْخٍ فقتلوه، ورجعوا يرتجزون:

أبلِغْ أبا نَصْرٍ وأبلِغ نَصْرَا أَعْني أبا الطَّمَّاحِ قولاً شَزْرا
أنا قَتلْنَا بأخينَا عَمْرَا نَعْقِلُ فيه جَفْرَةً أوْ جَفْرا
أو نَسْلُكُ القَوْمَ طريقاً وَعْرا (٢)

على أننا إذا تحدثنا عن الخلاف والصراع بين بطون هُذَيْل وعشائرها، وتحدَّثنَا عن وقوع بعض الأيام بينهم، وهي حقّاً أيامٌ مؤسفة بين بني العمومة من هُذَيل، فلا يعني ذلكَ أنّهم كانوا متفرقين في الصعوبات أو أثناء مواجهة الأعداء من القبائل الأخرى، إذ إننا نلاحظ أنهم كانوا يقفون معاً في مواجهة الخصوم، وهذه الصفة كانَت معروفة في الجاهلية، حيث شاعت العصبية القبلية، فإذا جاز لهم أن يختلفوا داخل إطار القبيلة فليس من المُسْتَساغ عندهم أن يتفرَّقوا أثناء مواجهة أعدائهم من القبائل الأخرى، بل إن هذه الصفة موجودة عند العرب في كلِّ عَصْرٍ، فقد يختلف الأقرباء وبنو العمومة

---

(١) المرجع نفسه جـ ٢ ص٨٠٠ أَجنِّي: يريد من أجل أني.
(٢) المرجع نفسه جـ ٢ ص٨٠٢. الجَفرَةُ: العَناقُ، والجَديُ، وهما لا تجوزان في العَقْلِ، فهو إما أن يكون قلَّلَ أمره، أو يكون استعارة للإبل.

في كلِّ مكان، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى التمسك بالقرابة والمحبة وصلة الدم، وسرعان ما تندثر خلافاتُهم وتذهب أدراج الرياح لا سيما في الخصومات وأثناء مواجهة الأعداء.

ومن الأمثلة على وقوف قبيلتنا صفاً واحداً في المحن والصعوبات أمام غيرهم من القبائل الأخرى، وذلك على الرغم مما قد يكون بينهم من خلافات أو خصومات ما روي من أنه كان بين بني لحْيان من هُذيْل وبين بني سُلَيْم بن منصور حرب، وكانت هناك مُوادَعةٌ بين بني سُلَيْم وبين بني سهْم بن معاوية من هُذَيل، وحدَثَ أن هَمَّتْ بنو سُلَيْم بغزو بني لحْيان، فلما بلغَ ذلك مَعْقِل بن خُويلد جمع لبني لحْيان ألفَ رجلٍ من بني سَهْم، فقالت بنو سُلَيْم لمَعْقل: أتريد أن تَنْصُرَ بني لحْيانَ علينا، وبيننا وبينكم ما قد عَلمْتُم؟ فقال لهم مَعْقلٌ: وهل يُسْلمُ القومُ بني عَمِّهم؟ إن تُقْصِروا عنهم فنحن على ما كُنّا عليه، وإنْ تقاتلوهم لا نَخْذُلْهم، ثم انصرف بنو سُلَيْم عن ذلك، بعد أن عرفوا أن مَعْقِلاً لن يَخْذُلَهم، فقال في ذلك مَعْقِلُ بن خويلد السَّهْميُّ:

تَقولُ سُلَيْمٌ سالمونا وحارِبُوا ... هُذَيْلاً ولمْ تَطْمَعْ بذلكَ مَطْمَعَا

فأمَّا بَنُو لحْيانَ فاعْلَمْ بأنَّهُمْ ... بنو عَمِّنا مَن يَرْمِهِمْ يَرْمِنا معَا

بنو عَمِّنا جاؤوا فَحَلُّوا جَنابَنَا ... فمن ساءَهُ فَسِيءَ أنْ نَتَجَمَّعَا

وإنَّ خُذُولِيهِمْ على أنْ أُمِدَّهُم ... بألفٍ إذا ما حاوَلُوا النَّصْرَ أقْرَعَا

أخونا ومَن يتركْ أخاهُ محارِباً ... يَذَرْهُ لِمَرِّ الحادثاتِ بأَجْرَعَا [1]

فنرى في هذه الأبيات مدى تمسك القبيلة بعصبيتها،ومدى إخلاصِ الشاعرِ لبني عمومته بني لحْيان، فهو يرى أنَّ من الخذْلان أن يمدّهم بألف من الرجال فحسب، لأن عليه أن يزيدَ في ذلك حتى يكون النَّصْرُ التَامُّ، فهو لا يترك إخوتَه ضائعين في الصعوبات، بل يُضَحِّي في سبيل ذلك بكل ما يستطيع.

---

(١) المرجع نفسه جـ ١ ص٣٧٥ يرمهم: يقاتلهم، جَنابنا: ناحيتنا، فَسِيء: يدعو عليه، أي: مَن ساءه أن نجتمع فسيء، أي: فدام له ذلك، أقرع: تام، الأجرع: الرمل.

حياتها الدينية:

كانت هُذَيْلٌ وَثَنِيَّةً كسائر العرب، وكانت الوثنيةُ هي الدِّينُ السائدُ في الجزيرة العربية، وقد انتشرت انتشاراً واسعاً قبلَ الإسلام، ويروى أن هُذَيْلاً كانت أَوَّلَ من اتخذ الأصنامَ وسماها بأسمائها، قال ابن الكلبي: "وكان أوّل من اتخذ تلك الأصنام مِنْ ولد إسماعيل وغيرهم من الناس وسموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل - هُذَيْل بن مُدْرِكة"(١) والمشهور عنهم أنهم اتخذوا سُواعاً صنماً لهم وأن سَدَنَتَه بنو لِحْيان من هُذَيْل، ويقال: إن رجلاً من هُذَيْل يسمى الحارث ابن تميم بن سَعْد بن هُذَيْل بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَرَ هو الذي دَفعهم إلى عبادة سُواعٍ(٢).

وذكر ابن حزم أن سُواعاً كان بنَعمانَ(٣)، وذكر الزِّرِكْلِيُّ أن هُذَيلاً عبدوا سُواعاً بوادي نَعمان قريباً من مكةَ(٤)، وقال ابن الكلبي: إن سُواعاً كان بِرُهَاط من أرض يَنْبعَ، ويَنْبع عرض من أعراض المدينة(٥)، وقال في موضع آخر: إنه كان بأرض يقال لها رُهَاط من بطن نخلَةَ،ويعبده مَن يليه من مُضَرَ(٦).

والمرجَح عندي أن سُواعاً كان بنَعمان وهو وادٍ بقرب مكة، وذلك لقربه من إقامتهم وموطنهم، لا سيما إذا علمنا أن نَعمان من بلادِ هُذَيْل. وقد ظهر واضحاً اضطرابُ ابنُ الكلبي حيث ذكر أنَّ سُواعاً كان برُهاط من أرضَ يَنْبع في عَرض من أعراض المدينة، وذكر مرة أخرى وفي موضع آخر أنه كان برهاط من بطن نخلة ويعبده من يليه من مُضَرَ(٧). ومن المعروف أن رُهاطاً قرب مكة ففي القاموس أن رهاطاً موضع على ثلاث ليالٍ من مكة.

---

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٩.
(٢) المرجع السابق ص٥٧.
(٣) جمهرة أنساب العرب ص٤٩٢.
(٤) الأعلام للزركلي جـ ٩ ص٧٣.
(٥) الأصنام لابن الكلبي ص٩.
(٦) المرجع السابق ص٥٧.
(٧) المرجع نفسه ص٩، ٥٧.

كما يروى أن هُذَيْلاً عبدوا "مَنَاة" وهو صخرة منصوبة على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة[١] وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله[٢]، فشاركوا خُزاعَة وقريشاً وجميع العرب في تعظيمه.

على أن شهرة هُذَيْل في عبادة سُواعٍ لا تعني أنَّ أحداً من العرب لم يَشْرَكْهُم في ذلك، فقد روي أنَّ كنانَة كانت تعبدُ سُواعاً[٣]، وذكر ابنُ حزم أن كِنانَةَ وهُذَيْلاً وَمُزَيْنَةَ وعمرو بن قيس عَيْلان كانوا يعبدون سُواعاً[٤]. ولعلَّ شَهرَتهم في عبادة سواعٍ وأنه كان خاصاً بهم تَرجع إلى أن سَدَنَتَه كانوا من بني لِحْيان من هُذَيْل كما ذكر ابن الكلبي[٥] وغيره، أو أن سَدَنَتَه كانوا من بني لِحْيان من هُذَيْل كما ذكر ابن الكلبي وغيره، أو أن سَدَنَتَه كانوا من بني صاهلة من هُذَيْل أيضاً كما ذكر ابن حزم[٦].

فلا خلافَ بين العلماء على أن سَدَنَتَه كانوا من هُذَيْل، ولكن الخلاف في أنهم من بني لِحْيان أو من بني صاهلة وكلاهما من هُذَيْل. وإذا كان المشهورُ أن بَني لِحْيان كانوا سَدَنَةً لسواعٍ، فلا يبعدُ أن بني صاهلَة كانوا سَدَنَةً له ولو في وقت من الأوقات، ولكن المهم عندنا أن سَدَنَةَ سُواعٍ كانوا من هُذَيْل، ولهذا نُرجح شهرتها في عبادته،أو القول بأن سُواعاً كان خاصّاً بهم حتى قال رجل من العرب:

تراهُمْ حولَ قِبْلَتِهِمُ عُكوفاً ... كما عَكَفتْ هُذَيْلٌ على سُواعِ

تَظَلُّ جَنابَهُ صُرْعَى لَدَيْهِ ... عَتائِرُ من ذَخائِرِ كُلِّ راعِ[٧]

ولكن يبدو أن هُذَيلاً لم تكن تتناول سُواعاً في أشعارها، أو أنها عرضت له في شعرها ولكن ذلك لم يصل إلينا، يقول ابن الكلبي: "ولم أسمع لهذيل في أشعارها له ذكراً، إلا شعر رجل من اليمن"[٨] وهو الشعر الذي سبق ذكره.

---

(١) الأعلام للزركلي جـ ٩ ص٧٣.
(٢) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص١٣.
(٣) الأعلام للزركلي جـ ٩ ص٧٣.
(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٩٢.
(٥) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص١٠.
(٦) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٩٢.
(٧) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٥٧.
(٨) المرجع السابق ص١٠.

وقد ورد ذكر سُواع في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**قالَ نوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني واتبَعُوا مَن لم يَزِدْهُ مالُه وولدُه إلا خَساراً، ومَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً، وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً**﴾ [نوح: ٢١-٢٣] وكانت هذه الأصنام الخمسة تُعْبَد في عَهْدِ قومِ نوحٍ عليه السلام.

ويبدو أن عربَ الجاهلية جَدَّدُوا عبادتها بعد نوحٍ، قال ابن الكلبي: "فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانتجثوا[١] ما كان يعبد قوم نوحٍ عليه السلام منها، على إرثِ ما بقي فيهم من ذكرها"[٢] ويقال: إن وَدّاً وسُواعاً ويغوثَ ويعَوقَ ونسراً كانوا في الأصل قوماً صالحين، ماتوا في شهرٍ، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم، هل لكم أن أعملَ لكم خمسة أصنامٍ على صورهم، غير أني لا أقدر أن أجعلَ فيها أرواحاً؟ قالوا: نعم. فَنَحَتَ لهم خمسةَ أصنامٍ على صورهم ونصبَها لهم[٣].

وذكروا أن سُواعاً كان ابن شيث، وأن يغوثَ كان ابن سُواعٍ وكذلك يعوق ونسر، وكلما هلكَ الأول صُوِّرَتْ صورته وعُظِّمَتْ لموضعه من الدِّين، وقالوا: ما عَظَّمَ هؤلاء آباؤنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر،فاتخذوها آلهة،ثم أدخلها إلى العرب عمرو بن لُحَيٍّ وعلمهم تلك الأسماء، وألقاها الشيطانُ على ألسنتهم موافقة لما كانوا في عهد نوحٍ[٤]. ويروى أن ابن عباس قال في ذلك: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، وهي أسماء قوم صالحين من قومِ نوح،فلما هلكوا أوحَى الشيطانُ إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم،ففعلوا فلم تُعْبَدْ حتى إذا هلكَ أولئك وتُنُوسخ العلم عُبِدَت"[٥].

ومن المعروف أن العربَ في الجاهلية كانوا يحجّون إلى الكعبة، وكانت قداستُها عندهم مُستَمَدَّةٌ من تحديدها للبيت العتيق الذي وضعَ قواعدَه سيّدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وكانت الكعبة مَوْضِعَ قداسة عند جميع العرب، فكانوا يأتون

---

(١) انتجثوا: استخرجوا.
(٢) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٦.
(٣) المرجع السابق ص٥١.
(٤) الروض الأنف للسهيلي جـ ١ ص٣٥٩.
(٥) المرجع السابق جـ ١ ص٣٥٩.

إليها من كلِّ فَجٍّ عميقٍ لممارسة الشعائر الدينية عند العرب المُتَعلِّقة بها كالطواف والتبرك. وكان الحجّ إلى الكعبة من أعظم الأعمال الدينية في الجاهلية، وقد كانت الأصنام حولَ الكعبة، وكانَ لكلِّ قبيلةٍ هناك صنم غالباً، واشتهر من تلك الأصنام هُبَل، وكان من أعظم الأصنام حول الكعبة، وهو كبير آلهة العرب، ويروى أنه كان من عقيق أحمر على صورة الإنسان، وكان مكسورَ اليد اليُمنى، ثم أدْرَكَتْهُ قريشٌ فجعلوها من ذهب[1]، ويقال: إن هُبَلَ كان في جوف الكعبة، وأنهم كانوا يستقسمون عنده بالأزلام[2]، وقد كَثُرَت الأصنامُ عند العرب حتى رُوي أن المسلمين أخرجوا من البيتِ الحرامِ ثلاثمائة وستين صنماً عندما فتحوا مكَّةَ[3].

وقد جعلَ العربُ للحجِّ أربعةَ أشهرٍ معلومات، وهي ذو القَعدة وذو الحجَّة والمحرَّم ثم رجب، وكانت هذه الأشهر حرامٌ عندهم، فلا يُستباحُ فيها دمٌ، ولا تَنْشبُ أثناءها حروبٌ، وذلك احتراماً لحرمة الكعبة التي كان العربُ يأتون إليها حاجّينَ أو مُعْتَمرين من أنحاء الجزيرة العربية. وكان لهم في الحج شعائرُ وطقوسٌ لعل من أَهَمِّها التَّلْبِيَةُ، ويروى عن قبيلة هُذَيْل أن تَلْبِيَتَهم كانت في الجاهلية إذا حجّوا:

لبَّـيْكَ عـن هُـذَيْـلْ قَـدْ أَدْلَجُـوا بِلَيْـلْ

فـي إِبِـلٍ وخَـيْـلْ[4]

ولم تزلْ الأصنام تُعْبَد حتى بُعِثَ النبيُّ ﷺ فأمرَ بَهَدْمِها، أما سُواع فقد هَدمه عمرو بن العاص، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه ليهدمَه، وذلك في شهر رمضان بعد الفتح، وقال عمرو بن العاص في ذلك: "فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسولُ الله ﷺ أنْ أَهْدمه، قال: لا تَقْدر على ذلك، قلتُ: لِمَ؟ قال تُمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل، ويحك! وهل يسمع أو يُبْصر؟ قال: فدنوت منه فكسرتُه وأمرتُ أصحابي فهدموا بيتَ خزانَته فلم يجدوا فيه شيئاً، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمتُ لله؟[5].

---

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٢٨.

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٩٢.

(٣) بلوغ الأرب للألوسي جـ٢ ص٢١١.

(٤) الأعلام للزركلي جـ٩ ص٧٣.

(٥) نهاية الأرب للنويري جـ١٧ ص٣١٥.

وأما مَناة التي كانت تعبدها هُذَيْل مع غيرها من العرب ـ كما تقدم ـ فقد بعثَ النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب إليها فهدمها،وذلك عام الفتح سنة ثمانٍ من الهجرة.(١)

وكذلك تَمَّ تحطيمُ جميعِ الأصنام، فعندما دخلَ رسولُ الله ﷺ مكةَ يوم الفتح على راحلته، طاف عليها وحول البيت أصنامٌ كثيرةٌ مَشدودة بالرصاص، فجعل النبيُّ ﷺ يشيرُ بقضيب في يَده إلى الأصنام ويقول: ﴿**جاءَ الحق وزهقَ الباطلُ إن الباطل كان زهوقاً**﴾[الإسراء: ٨١] فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع(٢)، ثم أمرَ بها فأخرجت من المسجد فَحُرِّقَتْ(٣) وتَمَّ بذلك تَطْهِيرُ الأرض العربية من الشركِ بالله، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً.

---

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص١٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ٧ ص١١٤.

(٣) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص٣١.

obeikandl.com